إرشاد العقل السليم إلى دلالات (رضي اللّه عنهم ورضوا عنه) في الكتاب الكريم

إعداد الدكتور

يحيى زكريا عبد المنعم أبو العزم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
القاهرة

إرشاد العقل السليم إلى دلالات
(رضي اللّه عنهم ورضوا عنه)
في الكتاب الكريم

يحيى زكريا عبد المنعم أبو العزم.
قسم التفسير وعلوم القرآن - كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين - جامعة الأزهر- مصر
البريد الإلكتروني: yahiazakaria864@gmail.com

الملخص:

الرضا بين الله تعالى وعباده إنعام عظيم، وفضل كبير لا يعرفه إلا من ذاقه؛ فإن رضاه جل شأنه هو غاية أهل الحق - بل أُمُّ الغايات - والإحساس بالرضا من ربِّ الخلق سعادةٌ لا تعدلها سعادة، وبه ينال الخلق كلَّ فوز وعظيمة وكرامة، وشيءٌ من رضوان الله تعالى أكبر من الدنيا وما فيها؛ وهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعيم.

وبالرضا يرتبط المؤمنُ بربه برباط عجيب حبيب، رباط وُدٍّ وتنزية، يثقون به بقدرة ربهم، ويحسنون الظن به، ويشكرونه على أنْعُمه.

يرضى العبدُ بربه، فيرضى ربُّهُ عنه، فيرضيه، فيَرضى العبدُ عنه، ورضا العبد عن اللّه سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين باللّه، واليقين هو حقيقة الإيمان، وإذا رضي عنه بالقليل من الرزق، رضي ربُّه عنه بالقليل من العمل، وبالتالي تعظم راحته، ويعظم سروره ونعيمه؛ فالرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العباد.

وهناك أعمال تكون سببًا لتلك الغاية القصوى، وهذا البحث – بتوفيق من الله تعالى- يظهر ذلك من خلال سلوك المنهج الاستقرائي الظاهر في تتبع الآيات التي تحدثت عن الرضا الموصول بين الله تعالى وبين العباد، وسلوك المنهج التحليلي الظاهر في دراسة تلك الآيات وبيان الفوائد المستخرجة منها.

الكلمات المفتاحية: الرضا- الصدق- الهجرة- الإيمان- العمل الصالح- الخشية.

In the Name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful

Guiding the Sound Intellect to the Indications of (Allah is pleased with them and they are pleased with Him) in the Noble Qur'an

Yahya Zakaria Abdel-Moneim Abu Al-Azm
Al-Azhar University – Cairo
Email: [yahiazakaria864@gmail.com

Abstract:

The satisfaction between Allah The Almighty and His servants is a great blessing and a significant favor known only to those who have experienced it. Indeed, His satisfaction is the ultimate goal for the people of truth—indeed, it is the most important goal of all Muslims. The sense of being blessed by Allah’s satisfaction - the Lord of creation - is a happiness unparalleled by any other, and through it, creation attains all success, dignity, and honor. A portion of Allah's satisfaction is greater than the world and all within it; it is greater in itself than any bliss that lies beyond. By means of satisfaction, the believers establish a wonderful and cherished bond with their Lord— a bond of love and purity wherein they trust in the power of their Lord, maintain good thoughts about Him, and express gratitude for His blessings. A servant is pleased with their Lord, and in turn, their Lord is pleased with them, leading to mutual satisfaction. The servant's satisfaction with Allah, Glory be to Him, is among the highest ranks of faith, for certainty is the essence of belief. When the servant is pleased with little sustenance, their Lord is content with little deeds, thus their comfort and joy are greatly magnified. Satisfaction is the greatest gate to Allah, the paradise of this world, and the resting place for His servants. There are actions that serve as means to achieve this ultimate goal. This research, with the grace of Allah The Almighty, highlights this through an inductive approach by tracing the verses that speak of the mutual satisfaction between Allah and His servants, in addition to employing an analytical methodology to study these verses and highlight the benefits derived from them.

Keywords: Satisfaction, Truthfulness, Migration, Faith, Good Deeds, Fear (of Allah).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الحي الذي لا إله إلا هو، قيوم السماوات والأرضين، والصلاة والسلام على خير البرايا ونور الأنوار وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

فإن الرضا بين الله تعالى وعباده إنعام عظيم، وفضل كبير لا يعرفه إلا من ذاقه.

ورضاه جل شأنه هو غاية أهل الحق - بل أُمُّ الغايات - إذ الإحساس بالرضا من ربِّ الخلق سعادةٌ لا تعدلها سعادة، وبه ينال الخلق كلَّ فوز وعظيمة وكرامة، وشيءٌ من رضوان الله تعالى أكبر من الدنيا وما فيها؛ وهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعيم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ سورة التوبة: ٢٧، فالرضا صفة الله تعالى، والجنة خلقه.

وبالرضا يرتبط المؤمنُ بربه برباط عجيب حبيب، رباط وُدٍّ وتنزية، يثقون به بقدرة ربهم، ويحسنون الظن به، ويشكرونه على أنْعُمه.

ولا يرضى العبدُ عن الحق سبحانه إلا بَعْد أَن يرضى عنه الحقُّ جل شأنه.

ورضا العبد عن اللّه سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين باللّه، واليقين هو حقيقة الإيمان، وإذا رضي عنه بالقليل من الرزق، رضي ربُّه عنه بالقليل من العمل، وبالتالي تعظم راحته، ويعظم سروره ونعيمه؛ فالرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العباد.

ومن خلال تتبع الآيات التي تحدثت عن الرضا بين الله تعالى وعباده يتضح أن هناك أعمالاً تكون سببًا لتلك الغاية القصوى.

ومن هنا أردت دارسة تلك الآيات، وأفدت من كتب سادتنا العلماء قديمًا وحديثًا في فهمها قدر الطوق، ومن الله تعالى التوفيق في الأولى والآخرة.

مشكلة البحث:

لا شكّ أنّ في استقصاء الآيات والوقوف عندها وقفةَ تأمُّل، وانتقاء كلام العلماء لبيان دلالاتها، مما يتطلب وقتًا وجهدًا.

وهذا البحث يجيب عن أسئلة هي:

١- ما الآيات التي تحدثت عن الرضا بين الله تعالى وعباده؟

٢- ما دلالات تلك الآيات؟

٣- ما هي تلك الأعمال الجليلة المتسببة في هذا الحال العظيم؟

أهمية البحث وأهدافه:

هذا البحث يكشف عن عناية المفسرين بأسلوب القرآن الكريم، ويظهر براعتهم في بيان وجوه إعجازه، ويظهر الأعمال التي تكون سببًا في الرضا المتبادل بين المولى جل شأنه والعباد، وتلك أعلى الطلبات وغاية الغايات.

أسباب الاختيار:

١- الرغبة في تأصيل هذا الموضوع المهم من وجهة النظر القرآنية.

٢- الاقتداء بالسلف الصالح والأئمة شموس العلم في العناية بالنص الكريم، وإظهار ما فيه من هدايات بقدر الطوق.

حدود البحث:

تتبعت الآيات التي تحدثت عن الرضا بين الله تعالى وعباده، وذلك قوله تعالى: (رضي الله عنهم ورضوا عنه)، وقد تبين أنها جاءت في أربعة مواضع، وحاولت إظهار ما حوته من دلالات بقدر الطوق.

الدراسات السابقة:

١-الرضا والغضب في الكتاب والسنة، إعداد الطالبة/ حنان الحسين العطاس، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من كلية العلوم وأصول الدين بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٩٩٩م، إشراف: د/ محمد الخضر.

وقد تناولت الباحثة الكريمة معنى الرضا وأقسامه ومنزلته وعلامات تحققه، وتحدثت عن الرضا بالقضاء والقدر، إلى غير ذلك من المباحث التي تناولت الرضا عامة.

ويتميز بحثي عن ذلك البحث بأنه يتناول آيات الرضا الموصول بين الله تعالى وعباده خاصة، وعن أسباب ذلك بتوسع، ومن زاوية خاصة، وبرؤية جديدة مختلفة، ولله تعالى الفضل في الأولى والآخرة.

٢- الرضا. دراسة قرآنية، إعداد/ منتهى محفوظ الجلاد، رسالة ماجستير من كلية أصول الدين بجامعة النجاح الوطنية بنابلس بفلسطين- ٢٠١٠م، إشراف الأستاذ الدكتور/ محمد حافظ الشريدة.

وقد تناول الباحث حقيقة الرضا، ونظائره، ودرجاته، ومنزلته، ومراتبه، وثمراته، وأن الدعاء لا ينافي الرضا، وتحدث عن الرضا الموصول بين العبد وربه في وريقات يسيرة، شارحًا آية سورة البينة فقط، ولم يتعرض فيها أيضًا لما تعرّض له البحث الخاص بي من ربط الرضا بالمقامات التي ذَكَرَتْهَا الآيات.

٣- ثمرات الرضا في القرآن الكريم. دراسة موضوعية، إعداد: د/ مزمل محمد عابدين، بحث منشور بمجلة العلوم والآداب الإنسانية بجامعة الإمام المهدي، العدد الرابع- يونيو- ٢٠٢١م

وتهدف الدراسة كما هو واضح من عنوانها إلى معرفة ثمرات رضا الله تعالى عن عباده دنيويًا وأخرويًا، فهي عن جانب من جوانب الرضا، وهو غير المسطور هنا في هذا البحث.

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي ويظهر في تتبع الآيات، والمنهج التحليلي ويظهر في دراسة الأمثلة وبيان الفوائد المستخرجة منها.

الإجراءات الخاصة:

١- طالعت القرآن الكريم، واستقرأت جميع الآيات التي تحدثت عن الرضا الموصول بين الله تعالى وعباده.

٢- قسمتها بحسب فصول ومباحث هذا البحث.

٣- بينت كلام العلماء في هذه الآيات وما يمكن أن نستفيده منها.

٤- عزوت الآيات.

٥- قمت بتخريج الأحاديث النبوية الموجودة في البحث؛ فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما، اكتفيت بالإحالة إليهما، وإن كان في غيرهما، ذكرت موضعه، مع بيان درجته.

٦- توخيت قدر الإمكان الدقة في التعبير، والسهولة في الأسلوب، وراعيت الأمانة العلمية في النقل عن المصادر.

٧- عرّفت بكل ما ظننته مشكلاً قدر الإمكان، وترجمت للأعلام الواردة في البحث، واستثنيت من ذلك بعض مَن عمّت شهرتهم وذاع فضلهم، وقد ترجمت للعلم عند ذكري له أول مرة.

خطة البحث:

قسّمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة وفهارس:

أما (المقدمة): فهي عن مشكلة البحث، وأهميته، وأسباب اختياره، وحدوده، والدراسات السابقة فيه، ومنهجي وخطتي فيه.

وأما (التمهيد): ففي التعريف بالرضا في اللغة والاصطلاح.

وأما (الفصل الأول): فهو عن الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد، وفيه مبحثان:

(المبحث الأول): رضا الله تعالى عن العبد.

(المبحث الثاني): رضا العباد عن الله تعالى، وفيه: معنى رضا العبد عن الله تعالى، وأن الرضى به تعالى هو أصل الرضى عنه، وأن من الرضا عن الله تعالى أن لا تذمّ شيئًا مباحًا ولا تعيبه، والرضا والشعور بالمكاره، وهل الرضا من المقامات أو الأحوال.

وأما (الفصل الثاني): فهو عن ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بخُلُق الصدق، وفيه مبحثان:

(المبحث الأول): مسائل الآية الكريمة.

(المبحث الثاني): أثر الصدق في نيل الرضا، وفيه مطالب:

الأول: التعريف بالصدق وأنواعه.

الثاني: بواعث الصدق وعلاماته.

الثالث: ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب.

الرابع: المراد بالصادقين الذي رضي الله عنهم ورضوا عنه.

الخامس: نَفْع الصدق.

وأما (الفصل الثالث): فهو عن ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بالهجرة في سبيله ونصرة دينه، وفيه مبحثان:

(المبحث الأول): مسائل الآية الكريمة.

(المبحث الثاني): فضل الهجرة وأحكامها، وفيه مطالب:

الأول: التعريف بالهجرة.

الثاني: فضل الهجرة.

الثالث: أحكام الهجرة.

وأما (الفصل الرابع): فهو عن ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بالحب في الله تعالى والبغض من أجله، وفيه مبحثان:

(المبحث الأول): مسائل الآية الكريمة.

(المبحث الثاني): الحب في الله تعالى والبغض من أجله، وفيه مطالب:

الأول: الحب في الله.

الثاني: البراءة من علامات الإيمان.

الثالث: ما به تظهر البراءة.

الرابع: براءة المصلحين من المفسدين.

الخامس: البراءة لا تنفي البر.

وأما (الفصل الخامس): فهو عن ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بالإيمان وعَمَلِ الصالحات والخشية منه جل شأنه، وفيه مبحثان:

(المبحث الأول): مسائل الآية الكريمة.

(المبحث الثاني): الإيمان وعَمَلُ الصالحات والخشية من الله، وفيه مطالب:

الأول: الإيمان: التعريف به، واختلاف أهل القبلة في مفهومه، وزيادته ونقصانه، وعَطْف الأعمال عليه، والفرق بينه وبين الإسلام، وفساد مذهب الجمود على ظواهر النصوص، وخطورة التشدد في إطلاق المُسَمَّيات.

الثاني: عَمَلُ الصالحات

الثالث: الخشية من الله تعالى.

وأما (الخاتمة): فهي عن أهم نتائج البحث.

وأما (الفهارس): ففيها فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وبعد،،، فقد اجتهدت في السلامة من الزلل قدر الإمكان؛ لكني لا أشك في وقوعه؛ فالبضاعة قليلة، والباع قصير، والذنوب كثيرة؛ ولكن حسبي أني أردت أن أستنير بآراء العلماء المحققين، وأن ألاحقهم للأخذ عنهم بما يسّر الله لي من تهذيب ألفاظهم واستخراج درر المعاني منها، جاعلاً المولى جل شأنه قصدي وحسبي، فأسأله تعالى القبول والتوفيق.

تمهيد في التعريف بالرضا في اللغة والاصطلاح

الرضا مأخوذ من مادّة (ر ض و)، وهو مصدر رَضِي يرضى فهو مرضيٌّ ومرضوٌّ، ويدل هذا الأصل على خلاف السّخط، وتثنية الرضا رِضوَان ورِضيَان، والاسم الرّضاء (بالمد) والرّضا (بالقصر).

والرّضوان: الرّضا الكثير، ويقال: أرضيته عنّي ورضّيته، وتراضى القوم: أظهر كلّ واحد منهم الرّضا بصاحبه.

وفعل الرضى يُعدَّى في الغالب بحرف (عن)، فيدخل على اسم عين، لكن باعتبار معنى فيها هو موجب الرضى، وقد يُعدَّى بالباء، فيدخل غالبًا على اسم معنى، نحو:رضيت بحكم فلان، ويدخل على اسم ذات باعتبار معنى يدل عليه تمييز بعده، نحو: رضيت بالله ربًّا، أو نحوه مثل: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ سورة التوبة:٣٨، أي بدلا، أو قرينة مقام؛ كقول قريش في وضع الحجر الأسود: هذا محمد –صلى الله عليه وسلم– قد رضينا به، أي رضينا به حكَمًا؛ إذ هم قد اتفقوا على تحكيم أول داخل.

ويُعدَّى بنفسه، فيدخل غالبا على اسم معنى نحو: رضيت حُكْمَ فلان، وفي هذه الحالة قد يُعدَّى إلى مفعول ثان بواسطة لام الجر، نحو: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ سورة المائدة٣، أي رضيته لأجلكم وأحببته لكم، أي لمنفعتكم وفائدتكم، وفي هذا التركيب مبالغة في التنويه بالشيء المرضي لدى السامع حتى كأن المتكلم يرضاه لأجل السامع.

ورِضَا الله تعالى عن العبد: هو أن يراه مؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه.

والرضى من العبد عن ربه جل شأنه قسمان: قسم يكون لكل مكلف، وهو ما لا بد منه في الإيمان، وحقيقته قبول ما يرد من قِبَل الله تعالى من غير

اعتراض على حكمه وتقديره، وقسم لا يكون إلا لأرباب المقامات، وحقيقته ابتهاج القلب وسروره بالمقضي(١).

---

(١) يراجع: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ت٤٥٨ه مقلوبة ر ض و ٨/ ٢٤٣، ط: دار الكتب العلمية-١٤٢١هـ، ت: عبد الحميد هنداوي، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ٤٠٤/١، ط: دار القلم- دمشق، ولسان العرب لابن منظور ٣٢٣/١٤، ط: دار صادر-بيروت، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ١٢٨٨/١، ط: مؤسسة الرسالة-بيروت، ت: محمد العرقسوسي، والكليات لأبي البقاء الكفوي ٤٧٨/١، ط: مؤسسة الرسالة-بيروت-١٤١٩هـ، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، وتحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير كتاب الله المجيد للطاهر بن عاشور ٣٣٨/٢٣، ط: الدار التونسية للنشر.

الفصل الأول

الرضا الموصول بين اللّه تعالى والعباد

المبحث الأول

(رضا الله تعالى عن العباد)

تنوعت الآراء في معنى رضا الله تعالى عن العبد؛ فطائفة يُمِـرُّون مثـل هذا كما جاء، ومعنى الإمرار عدم العلم بالمراد منه مع اعتقاد التنزيه.

يقول ابن الجوزي ت ٥٠٨هـ رحمه الله: " جاءت الأخبار بأن الله تعالى يرضى، ووقع الغلط من بعض المصنفين الذين سمُّوا هذه الأخبار صفات، وإنما هي إضافات، وليس كل مضاف صفة؛ فإنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾سورة الحجر ٢٩، وليس لله صفة تُسمَّى الروح.

وسبب إتيان مثل هذه الألفاظ ونسبتها لله تعالى أن الخلق غلب عليهم الحس فلا يكادون يعرفون غيره، فعبد قوم النجوم وأضافوا إليها المنافع والمضار، وعبد قوم الشمس، وعبد قوم البقر، وعبد الأكثرون الأصنام، فآنست نفوسهم بالحس المقطوع بوجوده، فلو جاءت الشرائع بالتنزيه المحض لجاءت بما يطابق النفي، ولو قيل: لا يحويه مكان ولا جهة، وليس بمتحرك ولا ساكن، ولا يشغل الأمكنة، لقالوا: أنت تدعو إلى عدم.

فلما علم الحق سبحانه ذلك جاءهم بأسماء يعقلونها من السمع والبصر والحلم والرضا والغضب؛ لأن المقصود الإثبات، وهو أهمُّ عند الشرع من التنزيه.

فإن قيل: لم سكتوا عن تفسير ذلك وقالوا: أَمِرُّوها كما جاءت؟

قيل: لأن ذلك ذُكر للإيناس بموجود، فإذا فُسِّر لم يحصل الإيناس، ولو أنهم أطلقوا في التأويل لاتسع الخرق.

فإن قيل: أنتم تلزموننا أن نقر بما لا يدخل تحت الفهم؟

قلنا: إن أردت بالفهم التخيل والتصور، فإن الخالق لا يدخل تحت ذلك؛ إذ ليس يُحَسُّ، ولا يدخل تحت ذلك إلا جسم له لون وقدر؛ فإن الخيال قد أنس بالمبصَرات، فهو لا يتوهم شيئًا إلا على وفق ما رآه؛ لأن الوهم من نتائج الحس، وإن أردت أنه لا يُعلَم بالعقل فقد دللنا أنه ثابت بالعقل؛ لأن العقل مضطر إلى التصديق بموجب الدليل"(١).

فالرضا على هذا حالٌ من أحوال الذات العلية لَا نعرف كنهها، ولا ندرك حقيقتها، وهي تليق بذاته الكريمة، وهي غير الإحسان، وإن كانت من فضل الله، وغير الرحمة؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعلها لبعض عباده، والإحسان والرحمة يَعُمَّان كلَّ موجود.

ويرى بعض الأشاعرة والماتريدية(٢) أن الرضا والمحبة والإرادة في حق الرب تعالى بمعنى واحد، وأن كل ما شاءه وأراده فقد أحبه ورضيه؛ لأن الملك إذا جرى في ملكه ما لا يريد، دل ذلك على نقصه أو ضعفه أو عجزه، والله تعالى موصوف بصفات الكمال، لا يجوز عليه في ملكه نقص ولا ضعف ولا عجز، فكيف يكون في ملكه ما لا يريده؟!

---

(١) دَفْع شبُه التشبيه بأَكُفِّ التنزيه لابن الجوزي ١/١٠٤ وما بعدها بتصرف، ط: دار الإمام النووي– الأردن، ت: حسن السقاف.

(٢) يراجع: التوحيد لأبي منصور الماتريدي ١/٢٩٧، ط: دار الجامعات المصرية– الإسكندرية، وتمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للقاضي أبي بكر الباقلاني ١/٤٧، ط: مؤسسة الكتب الثقافية–لبنان، ولمع الأدلة في قواعد أهل السنة لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني ١/١١٠ وما بعدها، ط: عالم الكتب– بيروت، وغاية المرام في علم الكلام لسيف الدين الآمدي ١/٦٩، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية– مصر، وشرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني ٢/١٤٧، ط: دار المعارف النعمانية–باكستان.

وعليه فإن غضب الله سبحانه ورضاه، ورحمته وسخطه، وحبه وعداوته، إنما هو إرادته لإثابة من رضي عنه، وإرادته عقاب من غضب عليه.

وهذا لأن الغضب والرضا ونحو ذلك إما أن يكون المراد به إرادته النفع والضرر فقط، أو يكون المراد به نفور الطبع وتغيره عند الغضب، ورقته وميله وسكونه عند الرضا، فلمَّا لم يجز أن يكون الباري ذا طبع يتغير وينفر، وأن هذا من صفات المخلوقين، ثبت أن المراد من بغضه ورضاه إنما هو إرادته نفع من كان في معلومه أنه ينفعه، وضرر من سبق في علمه أنه يضره، لا غير ذلك.

فمن رضي سبحانه عنه لم يزل راضيًا عنه لا يسخط عليه أبدًا وإن كان في الحال عاصيًا، ومن سخط عليه فلا يزال ساخطًا عليه ولا يرضى عنه أبدًا وإن كان في الحال مطيعًا، ومثال ذلك: أنه سبحانه وتعالى لم يزل راضيًا عن الفاروق رضي الله عنه في حال عبادة الأصنام؛ لعلمه بمآل أمره، وما يصير إليه من التوحيد ونصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك لم يزل ساخطًا على إبليس في حال عبادته؛ لعلمه بمآله وما يصير إليه حاله.

وقالوا في تأويل مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ سورة الزمر:٧، أي ممن لم يقع منه، وأما من وقع منه فهو يرضاه؛ إذ هو بمشيئته، أو: لا يرضاه لهم دينا؛ أي لا يشرعه لهم ولا يأمرهم به.

قال ابن عطية ت ٥٤١هـ: "الكفر يقع ممن يقع بإرادة الله، إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه، ومعنى: عدم رضاه أنه لا يثيبهم به خيرًا، فالرضى على هذا هو صفة فعل لمعنى القبول ونحوه"(١).

ويرى بعض المفسرين أن معنى عدم الرضى: أنه لا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه أو يثيب فاعله ويمدحه، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ويذم عليه ويعاقب مرتكبه.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٥٢١/٤، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٢هـ .

وقد يكون المعنى: لا يقبله منهم؛ لأنه تعالى طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا، والكفر نَجَسٌ وخَبَثٌ.

أو المراد بالعباد هنا المؤمنون، ولهذا أضافهم لله سبحانه وتعالى إليه، ويكون معنى الرضا على حقيقته، وهو أن الله سبحانه لا يرضى لعباده الذين أراد لهم الإيمان أن يكفروا، فهو سبحانه يهديهم إلى الإيمان، وييسر لهم السبيل إليه، وعلى هذا تكون الآية دعوة للمؤمنين أن يكونوا بالمكان الذي يرضاه الله لهم ويقبله منهم، وأن ينأوا عما لا يرضاه الله لهم، فإنهم عباده!

وكفر الكافرين على هذا وإنْ كان بإرادةٍ لله سبحانه فيهم، فإنه مطلوب منهم أن يُعملوا إرادتهم ويحركوا مشيئتهم إلى الإيمان؛ لأنهم لا يدرون ما إرادة الله فيهم ولا مشيئته بهم، وتلك هى الحجة القائمة عليهم(١).

وقالوا في معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ سورة البقرة:٢٠٥: المراد به أنه لا يثيب على الفساد ولا يمدحه ولا يأمر به، فإن اسم المحبة إنما يقع على ما يثاب عليه ويمدح فاعله عليه، وليس كل ما يريده المريد يقال فيه: إنه أحبه، ألا ترى أن الرجل اللبيب يريد ضرب ولده وقرة عينه ليؤدبه، ثم لا يقال: إنه أحب ذلك، فعُلم أنه ليس كل ما أراده المريد أحبه، وإنما يقال: أحب الشيء: إذا مدحه وأثنى عليه وأثاب عليه، والله تعالى لم يمدح الفساد، ولم يثن على المفسد، ولم يثبه.

---

(١) يراجع: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢١٥/٢٦، ط: دار الكتب العلمية، والسراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني ٤٣٤/٣، ط: مطبعة بولاق الأميرية- القاهرة، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل محمود الآلوسي ٢٤٢/٢٣، ط: دار إحياء التراث العربي، والتفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب ١١٢٣/١٢، ط: دار الفكر العربي- القاهرة.

وقال البعض: معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾: أي لا يحبه من أهل الصلاح والطاعة، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾، يعني لعباده المؤمنين(١).

وقد ردَّه البعض بأن الله تعالى أخبر أنه لا يرضى ما وُجد من ذلك وإن وقع بمشيئته؛ كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ سورة النساء:١٠٨، فهذا قول واقع بمشيئته وتقديره، وقد أخبر سبحانه أنه لا يرضاه، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾، فهو سبحانه لا يحبه وإن وقع بتقديره، كما لا يحب إبليس وجنوده وفرعون وحزبه وهو ربهم وخالقهم، فمن جعل المحبة والرضا بمعنى الإرادة والمشيئة لزمه أن يكون الله سبحانه محبا لإبليس وجنوده وفرعون وهامان وقارون وجميع الكفار وكفرهم.

وقد أخبر سبحانه أنه يمقت أفعالا كثيرة ويكرهها ويبغضها ويسخطها، فقال تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ سورة الصف:٣، وقال: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ سورة التوبة:٤٦.

فلا بد من التفريق بين المشيئة والمحبة، فإنه تعالى قد يشاء ما لا يحبه، ويحب ما لا يشاء كونه، فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه، والثاني: كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوُجد كله وكان جميعه، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن(٢).

---

(١) يراجع: مفاتيح الغيب ٥/ ١٧٢

(٢) يراجع: الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي ٢٣٦/١٥، ط: دار الكتب المصرية، ط٢، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، وشفاء العليل لابن القيم ٢٧٩/١، ط: دار المعرفة- لبنان.

والخلاصة أنه من المعلوم أن السادة الأشاعرة عندهم مذهبان في مثل هذا، هما مذهبا التفويض المطلق والتأويل، وإنني أرى ما يرون في ذلك، أرى التفويض في باب الإيمان، وأن الرضا حال من أحوال الذات العلية لَا نعرف كنهها، ولا ندرك حقيقتها، وهي تليق بذاته الكريمة، وكما أن للخالق جل شأنه إرادة وسمعًا وبصرًا تليق بجلاله؛ فإن له محبة ورضا وغضبًا تليق بجلاله.

وقد اختار بعض الأشاعرة – كالفخر الرازي ت ٦٠٦هـ رحمه الله – "أنه لا يبعد أن تكون المحبة والرضا صفتين وراء كونه تعالى مريدًا لإيصال الثواب إلى العبد – وهو ما اخترته– وذلك لأنا نجد في الشاهد أن الأب يحب ابنه، فيترتب على تلك المحبة إرادة إيصال الخير إلى ذلك الابن، فكانت هذه الإرادة أثرًا من آثار تلك المحبة وثمرة من ثمراتها وفائدة من فوائدها، أقصى ما في الباب أن يقال: إن المحبة والرضا في الشاهد عبارة عن الشهوة وميل الطبع ورغبة النفس، وذلك في حق الله تعالى محال، إلا أنا نقول: لم لا يجوز أن يقال: محبة الله تعالى ورضاه صفتان سوى الشهوة وميل الطبع يترتب عليهما إرادة إيصال الخير والثواب إلى العبد، أقصى ما في الباب أنا لا نعرف أن تلك المحبة ما هي؟ وكيف هي؟ إلا أن عدم العلم بالشيء لا يوجب العلم بعدم ذلك الشيء، ألا ترى أن أهل السنة يثبتون كونه تعالى مرئيًّا، ثم يقولون: إن تلك الرؤية مخالفة لرؤية الأجسام والألوان، بل هي رؤية بلا كيف، فلم لا يقولون ههنا أيضًا: أن محبة الله للعبد ورضاه عنه منزهان عن ميل الطبع وشهوة النفس وانفعالها، بل محبة ورضا بلا كيف"(١).

وأما إذا قلنا بالتأويل: فالرضا أكثر من الإرادة، فالإرادة تتعلق بالخلق والتكوين، فما أراده الله تعالى يقع، وما لا يريده لَا يمكن أن يقع، فلا يمكن أن يقع من أفعال الإنسان ما لَا يريده ربُّ العالمين، ولا يمكن أن يفعل الإنسان شيئًا

---

(١) يراجع: مفاتيح الغيب ١٤/ ١٠٨، ط: دار الكتب العلمية.

لَا يريده العليم الخبير، وأما الرضا ففيه ما فيه من الاستحسان والابتهاج، ويترتب عليه نفاسة المَرضي عند الراضي وتفضيله واختياره، ومعناه بالنسبة للذات العلية أن يكون العمل أو القول محل قبوله سبحانه وتعالى ومحل كرامته وعنايته.

ولذلك يُتصوَّر أن يفعل العباد ما يُغضبون اللهَ تعالى به، وقد جاء في القرآن الكريم عبارات صريحة في أن الله تعالى يَغضب على عباده لأفعالٍ فعلوها، وأن الله تعالى لَا يرضى عن بعض أفعال عباده، فالمشيئة إذن لَا تستلزم الرضا، إنما الأمر هو الذي يستلزم الرضا، والنهي يستلزم الغضب، فإذا كان قد شاء ضلالة بعض عباده، فإنه لَا يرضى من عباده الكفر(١).

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن هناك أعمالاً موصِّلة لرضا الله عز وجل عن العبد؛ فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ سورة البقرة:٢٠٧، وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ سورة البقرة:٢٦٥، وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾سورة التوبة:٧٢.

وأخبرنا القرآن الكريم أن رضا الله تعالى كان مطلوب الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿ وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾سورة طه:٨٤، وقال عن سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾ سورة النمل:١٩.

---

(١) يراجع: زهرة التفاسير لأبي زهرة ١١٨٧/٣، ١٩٢٩/٤، ٢٧٢٣/٥، ط: دار الفكر العربي.

وأخبرنا القرآن الكريم أيضًا أن الشفاعة لا تكون إلا لمن رضي الله عنه، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾سورة طه:١٠٩، وقال تعالى: ﴿ ۞ ﴾ ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾سورة النجم:٢٦، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

المبحث الثاني

(رضا العبد عن الله تعالى)

رضا العبد عن الله تعالى: هو سكون قلبه إلى قديم اختيار الله تعالى له، فيرضى به، وهناك فرق بين من هو راض بمحبوبه وبين من هو راض بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه^(١).

الرضا به تعالى هو أصل الرضا عنه:

والرضا عنه ثمرة الرضا به، والرضا به متعلق بأسمائه وصفاته، والرضا عنه متعلق بثوابه وجزائه؛ وقد علَّق النبي صلى الله عليه وسلم ذَوْقَ طعم الإيمان بمن رضي بالله ربا، ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا"(٢)، فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه صلى الله عليه وسلم، والرضا به تعالى ربًّا يتضمن توحيده وعبادته والإنابة إليه والتوكل عليه، ومحبته، وأن يرى كل ما منه نعمة وإحسانا، فيُسَرُّ قلبه بالمقدور في جميع الأمور، ويطمئن قلبه عند كل مُفزِع مهلع من أمور الدنيا، ويقنع بكل شيء، ويفرح بقيام مولاه عليه، ويستسلم للمولى في كل شيء، ويرضى منه بأدنى شيء، ويسلم له الأحكام والقضايا باعتقاد حسن التدبير وكمال التقدير فيها، ولا يشكو الملك السيد إلى العبد المملوك، ولا يتبرّم بفعل الحبيب، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاء، وإن الله إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابتلاهم، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ

---

(١) يراجع: الرسالة القشيرية للإمام القشيري ٢/٣٤١-٣٤٢، ط: دار المعارف- القاهرة، ت: فضيلة الإمام العارف بالله عبد الحليم محمود والأستاذ الدكتور محمود بن الشريف، ومدارج السالكين لابن القيم ٢/١٧١، ط: دار الكتاب العربي.

(٢) رواه الإمام مسلم بسنده عن العباس رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان، رقم ٣٤.

الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ"(١)، فالراضي مفوض وجازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، وموقن بجهله بعواقب الأمور، ومحسن الظن بربه وبأنه تعالى يعلم ما يصلحه من كل وجه، ويعلم أنه إذا رضي خف عليه الحمل وأُعين عليه، وإذا سخط تضاعف عليه ثقله، ويعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه، فلا تتم له عبوديته من الصبر والتوكل والرضا والتضرع والافتقار والذل والخضوع وغيرها إلا بجريان القدر له بما يكرهه.

ومن الرضا عن الله تعالى أن لا تذمّ شيئًا مباحًا ولا تعيبه: إذ هو شاهدٌ لله تعالى ناظرٌ إلى إتقان صنعه وحكمته، ولأنّك إذا عبت صنعة أحد وذممتها سرى ذلك إلى الصانع؛ لأنّه كذلك صنعها، وعن حكمته أظهرها، فالراضي عن اللّه تعالى متأدِّب بين يديه يستحي أن يعترض عليه في حكمه، مسلِّمٌ لحكمة حاكمه.

وقد ثبت عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنه "ما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه"(٢)، وهذا وصف الراضي الموقن.

وبالنظر في هذه الدقائق والوقوف عندها رُفع القوم عند اللّه إلى مقام المقربين، وبالتهاون بها والغفلة عنها فسدت القلوب حتى لم تصلح للمحبة والرضا(٣).

---

(١) رواه الإمام الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه، كتاب أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٦، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٣٧٠.

(٣) يراجع: الرسالة القشيرية ٣٤٢/٢، ومدارج السالكين ١٧١/٢ .

الرضا والشعور بالمكاره:

وليس من شرط الرضا ألا يشعر بالألم والمكاره، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه، كرضا المريض بشرب الدواء الكريه، ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها، وذلك لأن كراهة المقضي وبغضه والنفرة عنه لا تستلزم تعلق ذلك بالذي قضاه وقدره، فالمقضي قد يكرهه العبد وهو راض عمن قضاه وقدره.

قال أبو عَلِي الدَّقَّاق(١) رحمه الله: ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء.

وللعبد أن ينازع قدر الله بقدر الله، كما يستعيذ بمعافاته من عقوبته!!!

وقد يصل العبد إلى درجة يبطل فيها الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها، ومثاله الرجل المحارب؛ فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بألم ذلك؛ لشغل قلبه، وذلك لأن القلب إذا صار مستغرقًا بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، فكذلك المحب المستغرق بمشاهدة محبوبه، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال.

وطريق الرضا طريق مختصرة قريبة جدا موصلة إلى أجلِّ غاية، وإنما عقبتها همة عالية، ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله.

وطريق الرضا يُسيِّر العبد وهو مستلق على فراشه فيصبح أمام الركب بمراحل، وثمرته الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى(٢).

---

(١) هو أبو علي الحسن بن علي بن محمد بن إسحاق، لِسَان وقته، وإِمَام عصره، نيسابوري الأَصْل، شيخ الإمام القشيرِي، وتلميذ القفال، تُوفي سنة خمس وَأَرْبَعمِائَة، يراجع: طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي ٣٢٩/٤، ط: دار هجر للطباعة.

(٢) يراجع: الرسالة القشيرية ٣٤٢/٢، ومدارج السالكين ١٧١/٢ .

الرضا من المقامات أو الأحوال؟

يرى البعض أن الرضا من جملة المقامات، فعلى هذا يمكن أن يتوصل إليه العبد باكتسابه، وقال آخرون: هو من جملة الأحوال وليس كسبيًّا للعبد، بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال، والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب والأحوال مجرد المواهب، وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين فقالوا: يمكن الجمع بينهما بأن يقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد، وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة، فأوله مقام ونهايته حال.

واحتج من جعله من جملة المقامات بأن الله مدح أهله وأثنى عليهم وندبهم إليه، فدل ذلك على أنه مقدور لهم، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:"ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا"(١)، فقد تضمن ذلك الرضا بربوبيته سبحانه وبما يأمر به، والرضا برسوله صلى الله عليه وسلم والانقياد له بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، والرضا بدينه والتسليم له.

والتحقيق في المسألة: أن الرضا كسبي باعتبار سببه وهبي باعتبار حقيقته، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه، فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته اجتنى منها ثمرة الرضا؛ ومن رسخت قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا.

ولعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه رحمةً بهم وتخفيفًا عنهم، لكن ندبهم إليه وأثنى على أهله وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم، وهو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها، وهو باب الله تعالى الأعظم ومستراح العارفين.

---

(١) رواه الإمام مسلم بسنده عن العباس رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان، رقم ٣٤.

وليس الرضا كالرجاء والخوف؛ فإن الرضا حال من أحوال أهل الجنة لا يفارق المتلبس به في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة، بخلاف الخوف والرجاء فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه وأمنهم مما كانوا يخافونه، وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائما، لكنه ليس رجاء مشوبًا بشكٍّ، بل هو رجاء واثق بوعد صادق من حبيب قادر، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون(١).

---

(١) يراجع: الرسالة القشيرية ٢/٣٤١-٣٤٢، ومدارج السالكين ٢/١٧١ .

الفصل الثاني

ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بخُلُق الصدق

المبحث الأول

مسائل الآية الكريمة

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ سورة المائدة: ١١٩.

(المسألة الأولى): تخبرنا الآية الكريمة أن الله تعالى رَضي عن هؤلاء الصادقين في الوفاء له بما وعدوه من العمل بطاعته واجتناب معاصيه، ورضوا عن الله تعالى ذكره في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه من جزيل ثوابه(١).

والظاهر أنه ابتداء كلام من الله تعالى، وقال السُّدِّي(٢): "هذا من كلام عيسى عليه السلام، أي: يقول عيسى يوم القيامة: قال الله تعالى"(٣).

---

(١) يراجع: جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري ٢٤٤/١١، ط: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٠هـ، ت: الشيخ أحمد محمد شاكر، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد بن عطية ٢٦٣/٢، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٢هـ.

(٢) هو التابعي الجليل وصاحب التفسير إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي، حجازي الأصل، سكن الكوفة، وكان يجلس في سُدَّة باب المسجد، وكان إمامًا عارفًا بالوقائع وأيام الناس، تُوفي سنة ١٢٧هـ، يراجع: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٦٤/٥، ط: مؤسسة الرسالة.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٤٢٢/٤، ط: دار الفكر-بيروت-١٤٢٠هـ، ت: صدقي محمد جميل.

(المسألة الثانية): قرأ نافع(١) وحده (هذا يوم) بنصب يوم، وقرأ الباقون ﴿ يَوْمُ ﴾ بالرفع على خبر المبتدأ الذي هو ﴿ هَٰذَا ﴾ ، و﴿ يَوْمُ ﴾ مضاف إلى ﴿ يَنفَعُ ﴾ ، والمبتدأ والخبر في موضع نصب على أنه مفعول القول؛ إذ القول يعمل في الجمل.

وأما قراءة نافع فتحتمل أن يكون ﴿ يَوْمُ ﴾ ظرفًا لـــ ﴿ قَالَ ﴾ ؛ كأن التقدير: قال الله تعالى هذا الخبر يومَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، وتحتمل أن خبر ﴿ هَٰذَا ﴾ محذوف إيجازًا، كأن التقدير: قال الله هذا الخبر واقع يوم ينفع الصادقين صِدْقُهُمْ، ويجوز أن يكون ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ في موضع الرفع على الخبر، وإنما بُني على الفتح لإضافته إلى الجملة الفعلية، وإضافة اسم الزمان إلى الجملة الفعلية تسوغ بناءه على الفتح، ويرى آخرون أنه يجوز أن تجعل ظروف الزمان أخبارًا عن الأحداث؛ كقولك: القتال يوم السبت، والحج يوم عرفة؛ أي واقع في ذلك اليوم(٢).

(المسألة الثالثة): حكى الفخرُ ت٦٠٦هـــ الإجماعَ على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة(٣)، وقيل: "هو يومٌ من أيام الدنيا؛ فإن العمل لا ينفع إلا إذا كان في الدنيا"(٤).

---

(١) هو أحد القراء السبعة المشهورين نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني، كان شديد السواد، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة، أصله من أصبهان، وانتهت إليه رياسة القراءة في المدينة، وتوفي بها سنة ١٦٩هـــ، يراجع: الطبقات الكبرى ١/٤٥١.

(٢) يراجع: الحجة في القراءات السبع لأبي عبد الله بن خالويه ١/١٣٦، ط: دار الشروق- بيروت، ط٤: ١٤٠١هـــ، ت: د/عبد العال سالم، ومعاني القراءات لأبي منصور الأزهري ١/٣٤٤، ط: جامعة الملك سعود-١٤١٢هـــ.

(٣) يراجع: مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٢/٤٦٨، ط: دار إحياء التراث، ط٣: ١٤٢٠هـــ.

(٤) البحر المحيط ٤/٤٢٢.

والأظهر الأول، وأنه خُصَّ بالذكر لأنه يوم الجزاء الذي فيه تُجبى ثمرات الصدق الدائمة الكاملة، وإلا فالصدق ينفع في كل يوم وكل وقت.

(المسألة الرابعة): الصادقون هنا النبيون، وصدقهم تبليغهم، أو المؤمنون، وصدقهم إخلاصهم في إيمانهم، أو صدق عهودهم، أو صدقهم في العمل لله تعالى، أو صدقهم تركهم الكذب على الله وعلى رسله، أو صدقهم في الآخرة في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ(١).

والظاهر العموم؛ فكل صادق ينفعه صدقه.

(المسألة الخامسة): بيَّن المفسرون كيفية نفع الصدق في هذا اليوم؛ فقالوا: إن ذلك اليوم هو يوم الحق، فالصادق ينتفع فيه بصدقه؛ لأن الصدق حسن، فلا يكون له في اليوم الحق إلا الأثر الحسن، بخلاف الحال في عالم الدنيا، عالم حصول الحق والباطل؛ فإن الحق قد يجر ضرًّا لصاحبه بتحريف الناس للحقائق، أو بمؤاخذته على ما أخبر به.

وقوله تعالى: ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم، وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ إشارة إلى الدوام(٢).

وأما قوله تعالى: ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ فقيل: رضي عنهم بقبول حسناتهم ورضوا عنه بما آتاهم من الكرامة، وقيل: رضي عنهم بطاعتهم ورضوا عنه في الآخرة بثوابه، وقيل: رضي عنهم بصدقهم ورضوا عنه بوفاء حقهم، وقيل: رضي عنهم في الدنيا ورضوا عنه في الآخرة(٣).

ويرى الفخر الرازي رحمه الله " أن فيه أسرارًا عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها، حتى إن قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ يحتمل أن يكون مختصًا به؛

---

(١) البحر المحيط ٤/٤٢٢.

(٢) يراجع: مفاتيح الغيب ١٢/٤٦٩، والتحرير والتنوير ٧/ ١١٨.

(٣) البحر المحيط ٤/٤٢٢.

فإنه ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله تعالى كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة والرضوان صفة الحق؟! وأي مناسبة بينهما؟! وقال: إن هذا الكلام يشمئز منه طبع المتكلم الظاهري، ولكن كل مُيسَّرٌ لما خُلق له"(١).

وقد ذكر أبو حيان ت ٧٤٥هـ رحمه الله "أنه كلام عجيب شبيه بكلام أهل الفلسفة والتصوّف"(٢).

والحال أنه ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يطّلع الله على أهل الجنة فيقول: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربنا وكيف لا نرضى وقد بعّدتنا عن نارك وأدخلتنا جنتك؟! فيقول الله تعالى: ولكم عندي أفضل من ذلك، فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول الله عز وجل: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعدها أبدًا"(٣)، فالجنة مفضولة بالنسبة للرضوان! فكأن جملة ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بَيَانٌ للنعيم الروحاني بعد ذِكْرِ النعيم الجسماني؛ فَإِنَّ رِضَا الله تعالى عنهم ورضاهم عنه هو غاية السعادة الأبدية في نفسه، ويُعْلَمُ ذلك مِنْ حال كل مَنْ كان في كَنَفِ إنسانٍ وَالِدٍ أو أستاذ أو رَئِيسٍ؛ فإن علمه برضاه عنه يجعله في غِبْطَةٍ وهَنَاءٍ وطمأنينة قلب، ويكون سروره وزهوه بذلك على قدر مقام رئيسه الراضي عنه، على حَدِّ قول من قال(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٦٩/١٢.

(٢) البحر المحيط ٤٢٢/٤.

(٣) رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٤٩.

(٤) ذكره الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين ٣٤١/٤ ولم ينسبه لقائله، ط: دار المعرفة- بيروت.

قَوْمٌ تَخَالَجَهُمْ زَهْوٌ بِسَيِّدِهِمْ ... وَالْعَبْدُ يزهو على مِقْدَارِ مَوْلَاهُ
تاهوا برؤيته عما سواه له ... يا حُسْنَ رؤيتهم في عزِّ ما تاهوا"

على أن مرضاة رؤساء الدنيا لا تستلزم رضاء المرؤوسين دائمًا؛ لأن منهم الظالمين الذين لا يوفون أحدًا حقه وإنْ كانوا راضين عنه، ورضوان أكرم الأكرمين يستلزم رضا مَنْ رَضِيَ هو عنه؛ لأنه يعطيه أضعاف ما يستحق، وفوق ما يُؤَمِّلُ ويرجو، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ سورة السجدة:١٧، ورضوانه تعالى فوق كل شيء، كما قال تعالى في سورة التوبة: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ** ﴾ سورة التوبة: ٧٢ .

المبحث الثاني

أثر الصدق في نيل الرضا

المطلب الأول: في التعريف بالصدق وأنواعه:

الصدق هو اسم لحقيقة الشيء بعينه وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه، كما يقال: عزيمة صادقة: إذا كانت قوية تامة.

وأصل الصدق في القول ماضيًا كان أو مستقبلاً، فيمكن أن يصدُق الإنسان في حديثه عما مضى، ويمكن أن يصدق في وعده للمستقبل.

ويُطلَق الصدق على مطابقة القول للضمير والمُخبَر عنه، فإذا طابق قولك ما في ضميرك والشيء الذي تخبر عنه فأنت صادق، والعكس بالعكس، وإذا انخرم شرط لم يكن صدقًا، بل إما أن يكون كذبًا أو مترددًا بينهما – يعني بين الصدق والكذب– كقول المنافق: محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فهو من جهة المطابقة للمخبر عنه – وهو النبي عليه الصلاة والسلام– كذلك؛ فإنه رسول الله حقًّا، لكن من جهة ما يعتقده المنافق في ضميره فهو كذب؛ لمخالفة قوله لضميره.

وقد يستعمل الصدق والكذب في الفعل أيضًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ **قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ** ﴾سورة الصافات:١٠٥؛ أي عملت بمقتضاها، وكقولك: فلانٌ صَدَقَ في القتال⁽¹⁾.

فحقيقة الصدق أوسع من كونها الصدق في الحديث فقط، وإنما حقيقة الصدق شاملة لصدق اللسان، وصدق النية والعزيمة، وصدق الأعمال.

"فمن (حفظ لسانه) عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما: الاحتراز عن المعاريض إلا عند

---

(١) يراجع: المفردات في غريب القرآن ٤٧٨/١، والكليات ٥٥٦/١.

الضرورة؛ لأنها تقوم مقام الكذب؛ إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، والكمال الثاني: أَنْ يُرَاعِيَ معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها رَبَّهُ؛ كقوله: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض؛ فإن قلبه إِنْ كان مُنْصَرِفًا عن الله تعالى مشغولًا بأماني الدنيا وشهواتها، فهو كذب، وَكُلُّ مَا تَقَيَّدَ الْعَبْدُ به فهو عبدٌ له، ولقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "وأسألك لسانًا صادقًا"(١).

وأما (صدق النية والإرادة) فيرجع إلى الإخلاص، وهو أَنْ لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فَإِنْ مَازَجَهُ شَوْبٌ من حظوظ النفس بَطَلَ صِدْقُ النية، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبًا،كما قال صلى الله عليه وسلم: "إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأَنْ يقال عنك: جَرِيءٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِيَ في النار"(٢)؛ فإنه تعالى كذبه في إرادته ونيته.

و(صدق العزم) يكون بأنْ يُقَدِّمَ العزم على العمل، فيقول في نفسه: إنْ رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه أو بشطره، أو إن أعطاني الله تعالى وِلَايَةً عَدَلْتُ فيها ولم أَعْصِ اللهَ تعالى بظلم، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه، وهي عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة، والصادق هو الذي تُصَادِفُ عَزِيمَتُهُ في الخيرات كلها قُوَّةً تَامَّةً ليس فيها مَيْلٌ ولا ضَعْفٌ ولا تردد، بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمِّم الجازم على الخيرات، ومراتب

---

(١) رواه الترمذي بسنده عن شداد بن أوس في كتاب أبواب الدعوات، رقم ٣٤٠٧، وقال: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه.

(٢) رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم ١٩٠٥.

الصديقين في العزائم تختلف، ولذلك قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾سورة الأحزاب:٢٣.

وأما (الصدق في الأعمال) فَأَنْ يجتهد العبد حتى لا تَدُلَّ أَعْمَالُهُ الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، لا بأن يترك الأعمال، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر، فقد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتًا إلى الخلق ولا مرائيًا إياهم، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السَّرِيرَةِ والعلانية؛ ولذلك رُوي أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم اجعل سريرتي خيرًا من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة"(١).

وأعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين؛ كالصدق في الخوف والرجاء والتوكل والحب وسائر هذه الأمور؛ فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقًا فيه؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ سورة الحجرات:١٥"(٢).

المطلب الثاني: بواعث الصدق وعلاماته:

"من أهم بواعث الصدق العقل السليم؛ فإنه يدفع إليه، وكذا الشرع الصحيح؛ فالدين يَرِد فيصدِّقه العقلُ السليم، ويورد من التفاصيل ما هو فوق العقول.

---

(١) رواه الإمام الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتاب أبواب الدعوات، رقم ٣٥٨٦، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوي.

(٢) يراجع: إحياء علوم الدين ٤/٣٨٨-٣٨٩ بتصرف.

ومن بواعث الصدق: المروءة؛ وهي خلق مانع من جميع الأخلاق المشينة.

وينبغي العلم بأن محبة الذكر الحسن أشرف مقاصد أبناء الدنيا، وهي في جبلّة الناس، ولا توجد في غيره من الحيوان، ولولا الكلف به لما ظهرت العدالة من أكثر الناس، ولأجله تنازع الناس الرياسة والمنازل الرفيعة.

وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم، وإنما يُحمَد ويُذَم بحسب المقاصد، فمن قصد طلب ما يستحق به الثناء على الوجه الذي يُستَحب، فذلك محمود، وهو طريقة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿**وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ**﴾ سورة الشعراء:٨٤، ومن هذا الوجه ندب الإنسان إذا مُدح أن يقول: اللَّهم اجعلني خيرًا مما يظنون.

والمذموم منه أنه يميل إليه من غير تجربةٍ لفعل ما يقتضيه، وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه، وقد توعد الله تعالى مَن طلب المحمدة من غير فعل حسنة تقتضيها، فقال تعالى: ﴿**لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ**﴾ سورة آل عمران:١٨٨.

وينبغي أيضًا معرفة أن الداعي إلى الكذب محبة النفع الدنيوي وحب الترؤس، وذلك أن المخبِر يرى أن له فضلًا على المخبَر بما علمه، فهو يتشبَّه بالعالم الفاضل في ذلك، فيظن أنه يجلب بما يقوله فضيلة ومسرة، وهو يجلب به نقيصة وفضيحة، ففضيحة كذبة واحدة لا توازي مسرات دهره، فالكذب عارٌ دائم، والله الهادي"(١).

---

(١) يراجع: الذريعة إلى محاسن الشريعة للراغب الأصفهاني ١/١٩٦، ط: دار السلام- القاهرة-١٤٢٨ه، ت: أبو اليزيد العجمي.

المطلب الثالث: ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب:

ذهب العلماء إلى أن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعًا، فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحًا، وواجب إن كان المقصود واجبًا، كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فمهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قَدِ اخْتَفَى مِنْ ظالم، فالكذب فيه واجب، ومهما كان لا يتم إصلاح ذات البين إلا بكذب، فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن.

ثم إنه لا خلاف أن في المعاريض حيث يضطر الإنسان إليها مندوحة عن الكذب، ولم يزل الأنبياء والأولياء يفزعون إليها؛ كقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ سورة الصافات:٨٩، وقوله على زوجته عليها السلام: "هذه أختي"(١)، وقوله:ٱ﴿ ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ ّسورة الأنبياء:٦٣.

فَمَنِ اضْطُرَّ إلى شيء من ذلك فَصِدْقُهُ فيه أن يكون نُطْقُهُ فيه لله تعالى فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق فهو صادق وَإِنْ كان كلامه مُفْهِمًا غير ما هو عليه؛ لأن الصدق ما أُرِيدَ إلا للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا يُنْظَرُ إلى صورته، بل إلى معناه، فمتى صح القصد وصدقت النية وتجردت للخير صار صادقًا كَيْفَمَا كان لفظه(٢).

المطلب الرابع: المراد بالصادقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه:

الصادقون هنا هم الذين يصدقون في الوفاء لله تعالى بما وعدوه من العمل بطاعته واجتناب معاصيه، وهم الذين يَحْيَونَ وشعارهم الصدق، لا يعدلون عنه

---

(١) رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأنبياء، باب: واتخذ اللهُ إبراهيم خليلا، رقم ٣١٧٩.

(٢) يراجع: إحياء علوم الدين ١٣٧/٣، والذريعة إلى مكارم الشريعة ١٩٥/١.

مهما كلَّفهم من تبعات؛ لأنهم يعلمون أنه لا ينفع عند الله إلا الصدق، ولا يبقى الحقُّ في الأرض إلا بالصدق(١).

"ويرى الإمام الجنيد(٢) رضي الله عنه أن الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة!!!

وقد يسبق إلى الذهن خلافه، وأن الكاذب متلون والصادق مستمر على حالة واحدة؛ فإن الصدق واحد في نفسه، وصاحبه لا يتلون ولا يتغير، لكن مراد الشيخ غير هذا، وهو صحيح؛ فإن المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائي، بل هو فارغ منها؛ فإنه لا يرد عليه من قِبَل الحق موارد الصادقين، ولا يعارضهم الشيطان كما يعارض الصادقين؛ فإنه لا غرض له في خَرِبةٍ لا شيء فيها، وهذه الواردات توجب تقلُّب الصادق بحسب اختلافها وتنوُّعها، فَقَلْبه في تقلُّب وحركة شديدة بحسب سعة مطلوبه وعظمته، وهمته أعلى من أن يقف دون مطلبه على رسم أو حال، فهو كالمحب الصادق الذي همته التفتيش عن محبوبه، وكذا حال الصادق في طلب العلم وحال الصادق في طلب الدنيا، فكل صادق في طلب شيء لا يستقر له قرار، ولا يدوم على حالة واحدة، وأيضًا فإن الصادق مطلوبه رضى ربه وتنفيذ أوامره وتتبُّع محابِّه، فهو متقلِّب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها، ويستقل معها أين استقلت مضاربها، فبينما هو في صلاة إذ تراه في ذكر، ثم في حج، ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع، ثم في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، ثم في عيادة مريض أو نصر مظلوم إن أمكن، إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع، فهو في تفرق دائم لله وجمعية على الله، لا يملكه رسم ولا

---

(١) يراجع: جامع البيان ٢٤٥/١١، وروح المعاني ٧١/٧

(٢) هو شيخ التصوف الكبير أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، إمام الدنيا في زمانه، مولده ومنشأه ووفاته ببغداد سنة ٢٩٧هـ، يراجع: طبقات الصوفية ١٢٩/١ وما بعدها، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٦٨/٨، ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت.

عادة ولا وضع، ولا يتقيد بقيد ولا إشارة، ولا بمكان معين يصلى فيه لا يصلى في غيره، وزي معين لا يلبس سواه، وعبادة معينة لا يلتفت إلى غيرها.

وأيضًا فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي لا يطيقه إلا أصحاب العزائم، فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل، والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلا، فهو حامل له في أي موضع بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة، فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله"(١).

فكلامُ الإمام الجنيد كلامُ راسخٍ في الصدق عالمٍ بتفاصيله وآفاته ومواضع اشتباهه بالكذب!!!

المطلب الخامس: (نفع الصدق):

قال بعض العلماء: "مَنْ لم يؤد الفرض الدائم لا يُقبَل منه الفرض المؤقت، فقيل له: وما الفرض الدائم؟ قال: الصدق"(٢)، فالصدق أصل البر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر"(٣).

"والصدق أقوى معين وأفضل قرين، بل أقوى أركان بقاء العالم، وأصل المحمودات، وركن النبوات، ونتيجة التقوى، ولولاه لبطلت أحكام الشرائع"(٤).

وبالصدق يصل العبد إلى مرتبة الصديقية التالية لمرتبة النبوة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ولايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقا"(٥)، فهم الرفيق الأعلى، وحسن أولئك رفيقا، ولا يزال الله تعالى يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده.

---

(١) يراجع: الرسالة القشيرية ٢/٣٦٣، ومدارج السالكين ٢/٢٦٢

(٢) الرسالة القشيرية ٢/٣٦٦

(٣) رواه الإمام البخاري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الآداب، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين، رقم ٥٧٤٣

(٤) يراجع: الذريعة إلى مكارم الشريعة ١/١٩٣

(٥) رواه الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الآداب، ب رقم ٦٧٣٠.

الفصل الثالث

ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بالهجرة في سبيله ونصرة دينه

المبحث الأول

(مسائل الآية الكريمة)

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ سورة التوبة: ١٠٠.

(المسألة الأولى): المراد بالسبق: هو السبق إلى الإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم.

والمهاجرون: هم الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم، وفارقوا منازلهم وأوطانهم في سبيل الله تعالى، والسابقون منهم: الذين شهدوا بدرًا، وقيل: الذين أسلموا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقيل: الذين هاجروا قبل صلح الحديبية؛ لأن المشركين كانوا إلى هذا الوقت يضطهدون المؤمنين في بلادهم ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها، ولا يُمَكِّنُونَ أَحَدًا من الهجرة ما وجدوا إلى صَدِّهِ سبيلا، ولا منجاة للمؤمن من شرهم إلا بالفرار أو الجوار، وقيل: إنهم جميع من هاجر إلى أن انقطعت الهجرة، وتكون "مِنَ" لبيان الجنس.

والأنصار: الذين نصروا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه من أهل الكفر بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والسابقون منهم: هم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة أولاً – وكانوا سبعة نفر– وأهل

العقبة الثانية –وكانوا سبعين– والذين آمنوا حين قدم عليهم أسعد بن زرارة(١)، فعلمهم القرآن، وقيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، وقيل: من أدرك بيعة الرضوان منهما، وقيل: هم السابقون بالموت أو بالشهادة منهما، سبقوا إلى ثواب الله تعالى وحسن جزائه(٢).

" وقد قرأ الجمهور ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾ بالخفض عطفًا على المهاجرين، فيكون وصف السابقين صفة للمهاجرين والأنصار، وقرأ يعقوب(٣) {وَالأَنصَارُ} بالرفع، فيكون عطفًا على وصف ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، ويكون المقسم إلى سابقين وغيرهم خصوص المهاجرين"(٤).

وقد بينت المراد بالسبق على القراءتين، والأصح في ذلك عندي –والله الموفق– ما قاله الفخر الرازي رحمه الله: "إنهم السابقون في الهجرة وفي النصرة، والذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين، ولم يبين أنهم سابقون في ماذا؟ فبقي اللفظ مجملاً، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارًا، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارًا، وهو الهجرة والنصرة، فوجب أن يكون المراد منه السابقون الأولون في الهجرة والنصرة إزالة للإجمال عن اللفظ.

---

(١) هو أسعد بن زرارة الخزرجي النجاري، أحد الشجعان الأشراف في الجاهلية والإسلام، قدم مكة في عصر النبوة، فأسلم وعاد إلى المدينة، فكانا أول من قدمها بالإسلام، ومات قبل بدر سنة ١ه، فدفن في البقيع، يراجع: معرفة الصحابة ١/٢٨٠ وما بعدها.

(٢) يراجع: جامع البيان ١٤/٤٣٤–٤٣٥، والكشاف ٢/٢٨٩، والبحر المحيط ٥/٩٦، وتفسير المنار ١١/١٢

(٣) هو يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرميّ البصري، أحد القراء المشهورين، كان إمام البصرة ومقرئها، وتوفي بها سنة ٢٠٥ه، يراجع: طبقات القراء السبعة وذكر مناقبهم وقراءاتهم لابن السّلّار الشافعي ١/٩٩، ط: المكتبة العصرية– صيدا.

(٤) يراجع: النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/٢٨٠، ط: المطبعة التجارية الكبرى.

وأيضًا فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة من حيث إن الهجرة فعل شاقٌّ على النفس ومخالف للطبع، فمن أَقْدم عليه أولاً صار قدوة لغيره في هذه الطاعة، وكان ذلك مقويًا لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام وسببًا لزوال الوحشة عن خاطره، وكذلك السبق في النصرة؛ فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لمّا قدم المدينة فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة فازوا بمنصب عظيم، فلهذه الوجوه يجب أن يكون المراد: والسابقون الأولون في الهجرة والنصرة"(١).

(المسألة الثانية): المراد بالذين اتبعوهم بإحسان: هم الذين سلَكوا سبيلهم في الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، والهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، والنصرة وأعمال الخير، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت مَن رأى النبي صلى الله عليه وسلم، ويدخل معهم هنا في هذا اللفظ سائر الأمة، لكن بشريطة الإحسان.

وإنما قيد هذا الفريق خاصة بالإحسان؛ لأن السابقين الأولين ما بعثهم على الإيمان إلا الإخلاص، فهم محسنون، وأما الذين اتبعوهم فَمِن بينهم مَن آمن اعتزازا بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة، فآمن بعضهم وفي إيمانه ضعف وتردد، فربما نزلوا إلى النفاق، وربما ارتقوا إلى الإيمان الكامل، فإذا بلغوا ذلك دخلوا في وعد الرضى من الله تعالى وإعداد الجنات.

وعن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ (الذين اتبعوهم بإحسان)، بغير واو، صفة للأنصار، حتى قال له سيدنا زيد بن ثابت ت٤٥ه رضي الله عنه: إنها بالواو، فقال: ائتوني بأُبَيّ ت٢١هـ رضي الله عنه، فقال: تصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ سورة الجمعة:٣، وقال تعالى:

---

(١) مفاتيح الغيب ١٦/١٣٤.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ سورة الحشر: ١٠، فقال عمر رضي الله عنه: لقد كنت أرانا رَفَعنَا رَفْعَةً لا يبلغها أحد بعدنا(١).

(المسألة الثالثة): ذكر الله تعالى الجزاء الأعلى، وهو رضا الله تعالى عنهم في إيمانهم وإسلامهم وإحسانهم، وأعلاه ما كان من هجرتهم وجهادهم.

ورضوان الله تعالى أكبر جزاء على الطاعات، وقد قدَّمه الله تعالى على كل جزاء من بعده؛ لأن الإحساس برضا الله أعلى درجات الجزاء.

وذكر رضاهم بالله تعالى وليًّا ونصيرا، ورضاهم بما وَفَّقَهُمْ للإيمان به تعالى، وَأَسْبَغَهُ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من ضلال، وأغناهم من فقر، وأعزهم من ذل.

وهذا الرضا المتبادل يتناول جميع الأحوال والأوقات؛ بدليل أنه لا وقت ولا حال إلا ويصح استثناؤه منه، فيقال: رضي الله عنهم إلا في وقت كذا، ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ، أو يُقال: إن الله تعالى وصفهم بكونهم سابقين مهاجرين، ثم لما وصفهم بهذا أثبت لهم ما يوجب التعظيم، وهو قوله: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، والعلة ما دامت موجودة وجب ترتب المعلول عليها، وكونهم سابقين في الهجرة وصف دائم في جميع مدة وجودهم، فوجب أن يكون ذلك الرضوان حاصلاً في جميع مدة وجودهم، أو يقال: إنه تعالى قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وذلك يقتضي أنه تعالى قد أعد تلك الجنات وعينها لهم، وذلك

---

(١) يراجع: المحرر الوجيز ٧٦/٣، ومفاتيح الغيب١٣٥/١٦، والبحر المحيط ٩٦/٥، والتحرير والتنوير ١٨/١١

يقتضي بقاءهم على تلك الصفة التي لأجلها صاروا مستحقين لتلك الجنات، وليس لأحد أن يقول: المراد أنه تعالى أعدها لهم لو بقوا على صفة الإيمان، لأنه يقال: هذا زيادة إضمار، وهو خلاف الظاهر، وأيضًا فعلى هذا التقدير لا يبقى بين هؤلاء المذكورين في هذا المدح وبين سائر الناس فرق؛ لأنه تعالى أَعَدَّ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ولفرعون وهامان وأبي جهل وأبي لهب لو صاروا مؤمنين، ومعلوم أنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام في معرض المدح العظيم والثناء الكامل، وحمله على ما ذكروه يوجب بطلان هذا المدح والثناء، فسقط هذا القول، وظهر أن هذه الآية دالة على فضل السابقين من المهاجرين والأنصار مطلقًا من قدماء الصحابة، وكلمة ﴿مِنَ﴾ على هذا تفيد التبعيض، ومن العلماء من يرى أنه يتناول جميع الصحابة؛ لأن جملة الصحابة موصوفون بكونهم سابقين أولين بالنسبة إلى سائر المسلمين، وكلمة ﴿مِنَ﴾ ليست للتبعيض، بل للتبيين(١).

(المسألة الرابعة): جميع أفراد هذه الطبقات الثلاث جازوا القنطرة واستبقوا الصراط؛ لأن الله تعالى قد عدّلهم وشهد لهم برضاه عنهم، فنورهم يمحو كل ظلمة طرأت على أحد منهم بإلمامه بذنب.

"ولا شك في مشاركة سائر المؤمنين لأولئك بقدر اتباعهم لهم في سائر أعمال البر والإحسان؛ لأن الجزاء في حكم الله تعالى وشرعه العدل على الأعمال"(٢).

(المسألة الخامسة): "مع هذه المرتبة العليا من المكانة التي لَا تعلوها مكانة، قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وهو وعدٌ كريم

---

(١) يراجع: المحرر الوجيز ٧٦/٣، ومفاتيح الغيب ١٣٥/١٦، وزهرة التفاسير ٣٤٢٩/٧.

(٢) يراجع: تفسير المنار ١٥/١١ .

بجنات فيها مما لَا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يُخَاف فيها الفوت ولا الانقطاع، ولذا قال تعالت كلماته: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ﴾، والخلود ذاته نعمة؛ لأن البقاء نعمة، والفناء فيه الخوف، فَأَيُّ فَوْزٍ أعظم من نعيم الجنة الخالد من بدني وروحاني؟!

ولام ﴿ لَهُمْ ﴾ إشارة الى الاختصاص والتملك والاستحقاق؛ لتكميل اللذة وزيادة السرور، وإلا فكثيرٌ ما يضيِّف مَلِكٌ مسكينًا.

وجمع ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ إشارة الى تعدد الجنان وتنوع مراتبها على نسبة تنوع مراتب الأعمال، وكذا فيه رمز إلى أن كل جزء من الجنة جنة، وتنكيرها فيه إحالة على أذهان السامعين حتى يتصورها كلٌ على الطراز الذي يستحسنه.

وأما قوله: ﴿ تَجْرِي ﴾ فإشارة إلى دوام الجريان، وذلك أحسن الرياض"⁽¹⁾.

---

(١) يراجع: إشارات الإعجاز في مظانِّ الإيجاز لبديع الزمان النورسي ١/١٩٩، ط: شركة سوزلر للنشر- القاهرة، ط٣: ٢٠٠٢م.

المبحث الثاني

(فضل الهجرة وأحكامها)

المطلب الأول: تعريف الهجرة:

الهاء والجيم والراء أصل يدل على قطيعة، وعلى شدِّ شيء وربطه، والهِجرة والهُجْرة: اسمٌ من هجر يهجُر هَجْرًا وهِجرانًا، وهاجر القوم من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية، والهَجْر: ضد الوصل، وكذلك الهِجْران، ويكون الهجر بالقلب واللسان والبدن(١).

والهجرة في مصطلح الشرع: هي ترك دار الكفر والخروج منها إلى دار الإسلام(٢)، وأعم منه ما قاله الحافظ ابن حجر: "الهجرة في الشرع ترك ما نهى الله عنه"(٣)، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: "المهاجر من هجر ما نهى الله عنه"(٤)، وهذا يشمل الهجرة الباطنة والظاهرة، فأما الهجرة الباطنة: فهي ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء وما يزيّنه الشيطان، وأما الظاهرة فهي الفرار بالدين من الفتن، والأولى أصل للثانية، ثم لمَّا كانت هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة هي أشرف وأشهر أنواع الهجرة انصرف اللفظ عند الإطلاق إليها.

المطلب الثاني: فضل الهجرة:

ومما جاء في فضل الهجرة قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ سورة البقرة:٢١٨،

---

(١) يراجع: العين ٣٨٦/٣، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري باب الهاء والجيم مع الراء٢٨/٦،ط: دار إحياء التراث، ط١ ٢٠٠١م.

(٢) يراجع: المفردات في غريب القرآن ٨٣٣/١.

(٣) فتح الباري ١٦/١.

(٤) رواه الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم ١٠.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ سورة النساء:١٠٠، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ سورة الأنفال:٧٤، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ سورة التوبة:٢٠، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ سورة النحل:٤١، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ سورة النحل:١١٠، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ سورة الحج:٥٨.

ومن مجموع هذه الآيات الكريمة يتبين أن الذين هجروا مساكنة المشركين في أمصارهم، ومجاورتهم في ديارهم، فتحولوا عنهم، ابتغاء رضوان الله، وهجرة لما انتقلوا عنه إلى ما انتقلوا إليه.. أولئك هم المؤمنون حقًّا، وأولئك سيرحمهم الله في الدنيا بالرزق الوفير وسعة العيش، وفي الآخرة، فيدخلهم جنته التي يدوم نعيمها ولا يبيد.

المطلب الثالث: أحكام الهجرة:

تكلم العلماء في أحكام الهجرة؛ وملخص كلامهم ما يلي:

قال عامة أهل العلم(١): أحكام الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة، واستدلوا بعموم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا

---

(١) يراجع: المجموع للإمام النووي ١٩/ ٢٦٢ وما بعدها، والمغني لابن قدامة ١٠/ ٥٠٥.

مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ سورة النساء:٩٧، وبما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا بريء من مسلم بين مشركين؛ قالوا : يا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لِمَ؟ قال: لا تراءى ناراهما"(١)؛ ومعناه لا يكون بموضع يرى نارهم ويرون ناره إذا أُوقدت".

وقال قوم منهم الجصّاص والفخر(٢): حكم الهجرة قد انقطع؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية"(٣).

والأرجح هو الأول؛ بدليل ما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها"(٤)، وفي رواية "لا تنقطع الهجرة ما قوتل العدو"(٥)؛ أي مادام في الدنيا دار كفر؛ هذا مع إطلاق الآيات والاخبار الدالة على وجوب الهجرة، وتحقق المعنى المقتضي لها في كل زمان(٦).

---

(١) رواه أبو داوود بسنده عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه في كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، حديث رقم ٢٦٤٧، ورواه الترمذي رقم ١٦٠٤، وقال: جاء الحديث من طريق آخر عن قيس بن أبي حازم، ولم يُذكر فيه جرير؛ وهذا أصح، وقال ابن حجر الهيثمي: رواه الطبراني عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد، ورجاله ثقات؛ انظر: مجمع الزوائد رقم ٩٢٩٠.

(٢) يراجع: أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٨٧، ومفاتيح الغيب ١٥/ ١٥٩ .

(٣) رواه الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، حديث رقم ٢٦٣١.

(٤) رواه الإمام أحمد عن معاوية رقم ٢٦٣١، ورواه أبو داوود في كتاب الجهاد ، باب في الهجرة هل انقطعت، حديث رقم ٢٤٨١ .

(٥) رواه أحمد عن عبد الله بن السعدي رقم ٢٢٣٧٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رقم ٩٢٨٢: رجاله رجال الصحيح.

(٦) يراجع: المغني لابن قدامة ١٠/ ٥٠٥ .

وأما حديث "لا هجرة بعد الفتح" ففي تأويله قولان: أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة؛ لأنها صارت دار إسلام؛ وإنما تكون الهجرة من دار الحرب، وهذا يتضمن معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها تبقى دار إسلام، والثاني: معناه لا هجرة بعد الفتح فضلها كفضلها قبل الفتح؛ كما قال الله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ سورة الحديد:١٠، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "ولكن جهاد ونية"، فمعناه: ولكن لكم طريق إلى تحصيل الفضائل التي في معنى الهجرة؛ وذلك بالجهاد ونية الخير في كل شيء(١).

وإذا ثبت هذا فالناس في الهجرة على أَضْرُب:

أحدها: من لا يمكنه اقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار؛ فهذا تجب عليه الهجرة؛ لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ سورة النساء:٩٧، وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب، ولأن القيام بواجب الدين واجب على من قدر عليه، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته، وما لا يتم الواجب به فهو واجب.

الثاني: من يعجز عنها إما لمرض أو إكراه على الإقامة أو ضعف؛ من النساء والولدان وشبههم، فهذا لا هجرة عليه؛ لقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ سورة النساء الآية رقم ٩٨ – ٩٩.

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم ٩/ ١٢٣

الثالث: من تُستحب له ولا تجب عليه؛ وهو من يقدر عليها، لكنه يتمكن من إظهار دينه، فتستحب له؛ لتكثير المسلمين ومعونتهم، والتخلص من رؤية المنكر بين الكفار(١).

وذهب بعض الشافعية(٢) إلى أنه إذا قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر، ولم يُرج نصرة المسلمين بالهجرة، فقد صارت البلدة دار إسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة عنها؛ لما يترجى من دخول غيره في الإسلام عن طريق الدعوة إليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

---

(١) يراجع: المجموع ١٩/ ٢٦٤ وما بعدها، وفتح الباري ٦/ ١٩٠، والمغني لابن قدامة ١٠/ ٥٠٥، ويراجع: فتاوى دار الإفتاء المصرية عن حكم الإقامة ببلاد غير المسلمين، رقم الفتوى ٤٧٠٢، من فتاوى الأستاذ الدكتور شوقي علام.

(٢)ـ ممن ذهب إلى ذلك الإمام الماوردي وابن شهاب الرملي الشهير بالشافعي الصغير؛ يراجع: المجموع ١٩/ ٢٦٤، ونهاية المحتاج إلى شرح المنهاج لشمس الدين الرملي ٨/ ٨٢، ط: دار الفكر- ١٤٠٤هـ.

الفصل الرابع

ارتباط الرضا الموصول بين اللّه تعالى والعباد بالحب في اللّه تعالى والبغض من أجله

المبحث الأول

في مسائل الآية الكريمة

قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ سورة المجادلة:٢٢.

(المسألة الأولى): جرت سنة الله تعالى في خلقه أن يميل كلُّ شبيهٍ إلى شبيهه ومَنْ على شاكلته، فيتحابُّون ويتناصرون، فيلي المؤمنُ المؤمنَ، وينتمي إليه، ويدخل في جامعته، وينصره ويدفع عنه ما استطاع كلَّ شر وظلم وحيف، ويزيل عنه كل طغيان، وكذا يلي المنافق والكافر من على شاكلتهما من الفسدة المضلين، ويميلون إليهم، ويدفعون عنهم.

(المسألة الثانية): قضية الإيمان يجب أن تُقدَّم على كل شيء، فلا تحب القلوب إلا من يحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه مهما كانت منزلتهم، إذ هما طريقان لا ثالث لهما، فإما الانحياز لله تعالى، والصفاء من العلائق، والاستمساك بالعروة الوثقى، وإما السير في طريق الشيطان، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

إن الآية الكريمة تخبرنا أن المؤمن الحقّ الذي كَتَبَ الله السَّعَادَةَ وَقَرَّرَهَا فِي قلبه، وزين الإيمان في بصيرته، فأثمر ذلك نور الباطن واستقامة الأعمال

في الظاهر.. لا يحابي أعداء الله تعالى وحزب الشيطان، ولو كانوا من أقرب المقربين إليه، ولا يقدس تعاليمهم التي يريدون أن يحولوا بها مجتمعنا الإسلامي إلى ما يشبه مجتمعهم، ويريدون ارتدادنا إلى البهيمية، والأمرُّ من هذا أنهم يعتبرون ذلك قوانين محكمة لَا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!!!

إن الطريق الوحيد الذي لا بد أن يستمد منه العبد قِيَمه وموازينه هو طريق الله تعالى الذي استمد منه الوجود والحياة، فمن ضل هذا الطريق، وجنح إلى المنحرفين عن الدين، وداهن المبتدعين، نزع الله نور التوحيد من قلبه.

(المسألة الثالثة): رُوي في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في سيدنا أبي عبيدة بن الجراح ت١٨هـــ رضي الله عنه، كان والده يتصدى له يوم بدر وأبو عبيدة يحيد عنه، فلمَّا أكثر، قَصَدَه أبو عبيدة فقتله، ورُوي أنها نزلت في سيدنا أبي بكر ت ١٣هـــ رضي الله عنه، وذلك أنّ أبا قحافة والده(١) سبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصكَّه صكَّةً سقط منها، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو فعلته؟! قال: نعم، قال: لا تَعُد، ودعا ابنه يوم بدر إلى المبارزة، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: دعني أكرّ في الراعلة الأولى، قال: متِّعنا بنفسك يا أبا بكر، أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري؟!

وقيل: فيهما وفي غيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢).

والعبرة بعموم اللفظ، فالآية زجر عن التودد إلى الكفار والفساق الذين يكيدون للإسلام والمسلمين بالجملة، وما ذُكر من سبب نزولها إنما هو أمثلة لمقتضى حكمها.

---

(١) هو عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب التيمي القرشي، كان من سادات قريش في الجاهلية، وأسلم يوم فتح مكة، توفي ١٤هـــ، يراجع: الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٩٦/١، ط: مكتبة الصديق- الطائف.

(٢) يراجع: أسباب نزول القرآن للواحدي ٢٧٧/١، ط: مؤسسة الحلبي، والدر المنثور في التأويل بالمأثور للسيوطي ٨٦/٨

(المسألة الرابعة): "افتتاح الكلام في هذه الآية الكريمة بـــ ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا ﴾ يثير تشويقًا إلى معرفة حال هؤلاء القوم وما سيساق في شأنهم من حكم، وإنما جاء بصيغة الخبر؛ لأنه أقوى وآكد فى التنفير عن موالاة أعداء الله تعالى الذين يحاربون الدين ويفسدون أمر المسلمين؛ إذ الإتيان بصيغة الخبر تشعر بأن القوم قد امتثلوا لهذا النهى، وأن الله سبحانه قد أخبر عنهم بذلك.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمقصود منه أمره بإبلاغ المسلمين أن موادة من يُعلَم أنه يحادد اللهَ ورسوله صلى الله عليه وسلم هي مما ينافي الإيمان؛ ليكف عنها مَن عسى أن يكون متلبِّسًا بها، فالكلام من قِبَل الكناية عن السعي في نفي وجدان قوم هذه صفتهم، من قبيل قولهم: لا أرينك هاهنا، أي لا تحضر هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ سورة يونس: ١٨، أراد بما لا يكون؛ لأن ما لا يعلمه الله لا يجوز أن يكون موجودًا"⁽¹⁾.

ولذلك تجد الإمام الزمخشري ت ٥٣٨هـ رحمه الله "يرى أن هذه الافتراضية من باب التخييل، أي من الممتنع المحال أن تجد قومًا مؤمنين يوالون المشركين، والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه والزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم"⁽²⁾.

ويفسر لنا الفخر الرازي رحمه الله ذلك المعنى بأنه "لا يمكن أن يجتمع الأمران في القلب، فإذا حصل في القلب وداد أعداء الله وأعداء الدين الذين يحاربونه بكل الطرق، لم يحصل فيه الإيمان، فيكون صاحبه منافقًا، ويفسر

---

(١) التحرير والتنوير ٥٨/٢٨ .

(٢) الكشاف ٤٩٧/٤.

معنى هذه المودة المحظورة بأنها إرادة منافسه دينًا ودنيا مع كونه كافرًا محاربًا لدينه ومنتهكًا لسلامة مجتمعه وخصوصيته وأعرافه"⁽¹⁾.

(المسألة الخامسة): الموادة أصلها: حصول المودة في جانبين، والنهي هنا إنما هو عن مودة المؤمن الكافرين، لا عن مقابلة الكافر المؤمنين بالمودة، وإنما جيء بصيغة المفاعلة هنا اعتبارًا بأن شأن الود أن يجلب ودًّا من المودود للواد، وعلى هذا التأويل قال بعض الصحابة: اللهم لا تجعل لمشرك عندي يدًا، فتكون سببًا للمودة⁽²⁾.

(المسألة السادسة): حبُّ هؤلاء الذين ذكرهم الله في هذه الآية الكريمة من أعظم أنواع الحب، ومع ذلك فإنه لا ترخُّص فيما نهى الله عنه من المودة بعلة قرب القرابة؛ إذ تنفي الآية أن يوجد مَن يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شُعَبَه على الكمال، ويوادد ويلاطف أهل الزيغ والضلال الذين يحاربون الدين ويستخفون بحرمات الإسلام، ويقل اكتراثهم بثوابت المجتمع ومسلماته، ويجهرون بالكبائر والفواحش، ويسخرون من الزواجر والمواعظ، ويعرضون عن الحق، ويؤثرون الهوى النفسي والعصبية على الحق، ولا يألون في العداوة، وينتهزون كل سانحة في إيصال ضررهم إلى المؤمنين.

(المسألة السابعة): السر في تقديم الآباء هنا أنهم أول من تجب طاعتهم، وثنى بالأبناء لأنهم ألصق الناس بهم، وثلث بالإخوان لأنهم الناصرون لهم، وختم بالعشيرة لأن التناصر بها يأتى فى نهاية المطاف، فقد رُتِّبت أصناف القرابة في هذه الآية على طريقة التدلي من الأقوى إلى من دونه؛ لئلا يتوهم أن النهي خاص بمن تقوى فيه مظنة النصيحة له والائتمار بأمره⁽³⁾.

---

(١) مفاتيح الغيب ٤٩٩/٢٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢٨٢/٥، والتحرير والتنوير ٥٨/٢٨.

(٣) يراجع: التحرير والتنوير ٥٩/٢٨، والتفسير الوسيط ٢٧٤/١٤، ط: دار نهضة مصر- الفجالة.

"وعشيرة الرجل: أهله الذين يتكثَّر بهم"(١).

(المسألة الثامنة): هؤلاء الذين لا يخضعون لضغط أهواء المخالفين والانحدار معهم يعينهم الله تعالى بقوة، ويعظمون عنده، وترتفع أقدارهم، وهم مؤيَّدون بعناية الله تعالى ولطفه ونصره ومدده الإلهي وإحسانه الرباني، كما قال جل شأنه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾، أي نور شريف جدًّا يفهمون به ما أودع في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من كنوز العلم والعمل، فهو لقلوبهم كالروح للأبدان، فلا يفعلون شيئًا من أحوال هؤلاء الظلاميين، وقد سمى العناية واللطف والنصرة روحًا؛ إذ بذلك يحيى أمرهم وتنطلق أرواحهم.

ولقد زاد هذا التأييد شرفًا بقوله تعالى: ﴿مِّنۡهُۖ﴾، "أي يحييهم به، فلا انفكاك لذلك عنهم في وقت من الأوقات، فيثمر هذا استقامة المناهج ظاهرًا وباطنًا، ويقهرون الظلاميين ومدعي الحداثة بالدلائل والحجج، ويكونون للدنيا كالسُّرج"(٢).

(المسألة التاسعة): "لمَّا أخبر الله تعالى بما آتاهم في الدنيا، أخبر بما يؤتيهم في الآخرة فقال: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، أي بساتين يستر داخلها من كثرة أشجارها، وأخبر عن ريِّها بقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، فهي لذلك كثيرة الرياض والأشجار والساحات والديار.

ولمَّا كان ذلك لا يلذ إلا بالدوام قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾"(٣).

(المسألة العاشرة): في قوله تعالى هنا: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ سِرٌّ بَدِيعٌ، "وهو أنهم لَمَّا سَخِطُوا على أقاربهم وعشائرهم في الله عَوَّضَهُمُ الله تعالى

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٢/٩٦.

(٢) يراجع: مفاتيح الغيب ٢٩/٢٤١.

(٣) نظم الدرر ٧/٥٠٧.

بالرضا عنهم، ونعمة الرضوان هي أعظم النعم وأجل المراتب، ثم إنه تعالى أرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم(١).

(المسألة الحادية عشرة): "لمّا أخبر عنهم بما يسرُّ كل سامع، فيشتاق إلى مصاحبتهم ومعاشرتهم ومرافقتهم ومقاربتهم، مدحهم بقوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ** ﴾ أَيْ: عِبَادُ الله حقًّا وَأَهْلُ كرامته الذين هم في الدرجة العليا من العظمة؛ لكونهم قصروا وُدَّهم على الله علمًا منهم بأنه ليس النفع والضر إلا بيده، فلا يغضبون إلا له ولا يخافون فيه لومة لائم.

ولما تبين مما أُعدَّ لهم وأُعدَّ لأضدادهم أنهم المختصون بكل خير، قال على طريق الإنتاج مما مضى مؤكِّدًا لما لأضدادهم من الأنكاد: ﴿ **أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ** ﴾، فهو تَنْوِيهٌ بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدنيا والآخرة، أي هم الذين حازوا الظفر بكل ما يؤملون في الدارين"(٢).

---

(١)ـ يراجع: تفسير القرآن العظيم ٨/٥٥، ونظم الدرر ٧/٥٠٧

(٢)ـ يراجع: تفسير القرآن العظيم ٨/٥٥

المبحث الثاني

الحب في الله تعالى والبغض له

المطلب الأول: في الحب في الله:

من خلال دراسة الآية السابقة تبين أن كل إنسان يوالي من على شاكلته، فالمؤمنُ يحب المؤمنَ، عملاً بما جاء في هذا الباب، وهو أكثر من أن يُحصَر، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿(إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)﴾ سورة الحجرات:١٠، ففي هذه الآية جاء أسلوب القصر بإنما على وجه الخصوص؛ لأنها تأتي فيما لا يجهله المخاطَب، فكأن أمر الأخوة بين المؤمنين متقرر ومعلوم لا يجهله أحد، وقال تعالى: ﴿(وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)﴾ سورة الحشر:١٠، فصفة المؤمنين أنهم يدعون لمن سبقهم بالخير، ويطلبون من الله تعالى ألا يكون في قلوبهم أدنى غلٍّ للمؤمنين.

والسنة مليئة بمثل هذه المعاني؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، وَمَنْ فَرَّجَ عن مسلم كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عنه كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يوم القيامة، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا ستره الله يوم القيامة"(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا"(٢)، وقال صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر

---

(١) رواه البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يُسلمه، رقم ٢٤٤٢.

(٢) رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، رقم ٢٤٤٦.

الجيد بالسهر والحمى"(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(٢).

ولقد أهمل أكثر مسلمي زماننا هذه المعاني الرفيعة السامية، على الرغم من كونها بابًا عظيمًا من أبواب الخير في الدنيا والآخرة، فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله منهم أن منهم: "رجلين تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه"(٣)، وكذلك جاء في الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من وجدهن وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار"(٤).

فالحب لله وفي الله من أعلى الدرجات وأدقها، ومن آثاره: "أن يتعدى من المحبوب إلى كل ما يتعلق بالمحبوب ويناسبه ولو مِنْ بُعْد، فمن أحب إنسانًا حبًّا شديدًا أحبَّ محبَّ ذلك الإنسان، وأحب محبوبه، وأحب من يخدمه، وأحب من يثني عليه محبوبه، وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه، وإذا أحبَّ العبدُ اللهَ تعالى أثمر ذلك حب كل من يقوم بحق عبادة الله في علم أو عمل، وأثمر حب كل من فيه صفة مرضية عند الله من خلق حسن أو تأدب بآداب الشرع"(٥).

---

(١) رواه الإمام مسلم بسنده عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم ٢٥٨٦.

(٢) رواه الإمام البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم ١٣.

(٣) رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، رقم ١٤٢٣.

(٤) رواه البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم١٦

(٥) إحياء علوم الدين ١٦٤/٢.

ومن آثار الحب والولاية أيضًا: أن يجبر العبدُ خاطرَ أخيه كلما أمكنه ذلك، وأن يقف المسلم في صف إخوته من المسلمين، فيكون معهم يدًا واحدة على أعدائهم.

المطلب الثاني: البراءة من علامات الإيمان:

قال تعالى: ﴿ **لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾سورة آل عمران: ٢٨، وقال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا** ﴾سورة النساء: ١٣٩، وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا** ﴾ سورة النساء:١٤٤، وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ** ﴾ سورة المائدة:٥٧، وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ** ﴾سورة الأنعام:١٢٩، وقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ سورة التوبة:٢٣.

ومن مجموع هذه الآيات يتبين أن من يوالي لله تعالى فإنه لا بد أن يبغض في الله؛ فإن مَن أحبَّ بسبب فلا بد بالضرورة أن يبغض لضده.

فمن خالف شعائر الدين، وتمادى في عداوة المسلمين، وأفسد ذوقهم، ومرد على النفاق، والابتعاد عن الحقائق، فلنعلن بكل حزم البراءة منه كما يتبرّأ منا ومن مسلّماتنا وأعرافنا.

"وأصل كلمة البراء والتّبرّؤ: التّفصّي ممّا يُكره مجاورته، ومن ذلك: البُرء، وهو السّلامة من السّقم، والوصف من ذلك: براء على لغة أهل الحجاز،

وبريء على لغة غيرهم، وقد جاءت اللّغتان في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾سورة الزخرف: ٢٦، وقال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ سورة الحشر: ١٦، ومن قال: براء لم يثنّ ولم يؤنّث، ومن قال: بريء قال في المؤنّث: بريئة، وفي المثنّى بريئان، وفي الجمع: بريئون وبرآء وبراء"(١).

إن أهل الإيمان الكامل لا يوادون من يخرق سياج الشريعة عامدا، ويستخف بحرمات الإسلام، ويقل اكتراثه بالدين، ويجهر بالكبائر والفواحش، ويسخر من الزواجر والمواعظ، ويتكلم بلسانين، ويظهر بوجهين، فإذا ما خلا إلى بعض عُمَّالِ الإفساد ودعاة الفتنة الذين يصدون عن الحق بشوك الباطل، خَلَع ثَوْبَ التَّسَتُّرِ وَصَرَّح بما يُبْطِنُ، وأظهر حقيقته الخسيسة(٢).

المطلب الثالث: ما به تظهر البراءة:

ويمكن إظهار البغض والبراءة بكف اللسان عن مكالمته ومحادثته مرة، وبقطع السعي في إعانته مرة، وبالسعي في إفساد مآربه أخرى، وبعض هذا أشد من بعض، ويكون بِحَسَبِ دركات الفسق والمعصية الصادرة عنه.

" فإن كان فاسد الاعتقاد محاربًا للمسلمين فلا بد من تَرْك الرفق به، وإنْ زعم أن ما يدعو إليه حق فهو سببٌ لغواية الخلق، وهذا أيضًا لا بد من الانقطاع عنه وبيان فساده، وإن كان عامِّيًا لا يُخاف الاقتداء به فأمره أهون، فيتلطف به في النصح؛ فإن قلوب العوام سريعة التقلب، فإنْ لم ينفع النصح وكان في الإعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه، تأكَّد الاستحباب في الإعراض.

---

(١) يراجع: المفردات في غريب القرآن ١/٨٥-٨٦ .

(٢) يراجع: روح المعاني ٢٨/٣٥ .

وأما العاصي بحيث يتأذى به غيره -كالظلم والغضب وشهادة الزور والغيبة والمشي بالنميمة وأمثالها- فالأولى الإعراض عنه وترك مخالطته والانقباض عن معاملته.

وأما الذي يفسق في نفسه بشرب خمر أو ترك واجب فالأمر فيه أخف، ولكنه في وقت مباشرته يُنهَى عنه؛ فإن النهي عن المنكر واجب، وإذا فرغ منه وعلم أن ذلك من عادته وهو مصر عليه، فإن تحقق أن نصحه يمنعه عن العود إليه وجب النصح بالتلطف أو بالتغليظ -إن كان هو الأنفع- ويدل على تخفيف الأمر في الفسق القاصر الذي هو بين العبد وبين الله ما روي أن شارب خمر ضُرب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال واحد من الصحابة: "لعنه الله، ما أكثر ما يُؤتَى به!! فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله"(١).

فالأولى فيه الستر والإغماض، وقد تتلطف بإعانته وإظهار الشفقة عليه ليقبل نصحك، وقد قال تعالى أيضًا: ﴿ **وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ** ﴾سورة النور: ٢٢؛ وذلك حينما تكلم مِسْطَح بن أُثَاثة(٢) في واقعة الإفك، فحلف أبو بكر أن يقطع عنه رفقه -وقد كان يواسيه بالمال- فنزلت

---

(١) رواه الإمام البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كتاب الحدود، باب ما يُكره من لعن شارب الخمر، رقم٦٧٨٠.

(٢) هو أبو عباد مسطح بن أثاثة بن عبّاد بن المطلب بن عبد مناف، صحابي من الشجعان الأشراف، كان اسمه عوفا ولُقِّب بمسطح فغلب عليه، أمه بنت خالة أبي بكر، وكان أبو بكر يموِّنه لقرابته منه، فلمَّا كان حديث أهل الإفك جلده النبي صلى الله عليه وسلم مع من خاضوا فيه، وحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، فنزلت الآية، فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه، وهو ممن شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها، تُوفي عام ٣٤هـ، يراجع: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ١٤٧٢/٤، ط: دار الجيل-بيروت-١٤١٢هـ.

الآية(١) مع عظم معصية مسطح الذي تعرض لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطال اللسان في مثل سيدتنا عائشة ت٥٨ه رضي الله عنها؟! "(٢).

المطلب الرابع: براءة الصالحين من المفسدين:

لنا في أنبياء الله عليهم السلام أسوة حسنة في ذلك، فنبي الله نوح عليه السلام قد امتثل أمر ربه جل شأنه حين أمره بأن يتبرأ من ولده قائلا: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ سورة هود: ٤٦-٤٧، "ففي هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ومع هذا قد امتثل أمر ربه"(٣).

"والخليل عليه الصلاة والسلام قد ترك موالاة أبيه آزر وقومه الذين عاندوه حين دعاهم إلى الإيمان فامتنعوا، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ سورة التوبة:١١٤، فقدّم الخليل آصرة الإيمان على آصرة الأبوة، وقال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ سورة الممتحنة: ٤، فالخليل والذين معه قد كاشفوهم بالعداوة، وأظهروا لهم البغضاء، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله؛ ومادام هذا السبب قائمًا كانت العداوة قائمة، حتى إذا أزالوه وآمنوا بالله وحده، انقلبت العداوة موالاة، والبغضاء محبة"(٤).

---

(١) أسباب النزول للواحدي ٢١٧/١.

(٢) يراجع: إحياء علوم الدين ١٦٧/٢ .

(٣) يراجع: مفاتيح الغيب ٣/١٨.

(٤) يراجع: الكشاف ٥١٣/٤.

وامرأة فرعون عليها السلام قدمت الإيمانَ على رابطة الزوجية، وقالت: ﴿ **رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ سورة التحريم: ١١.

وأصحاب الكهف قد اعتزلوا قومهم وأرضهم ليفرُّوا إلى الله بدينهم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا** ﴾ سورة الكهف: ١٣- ١٦.

وقدَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم محبةَ الله تعالى على عمه أبي لهب وعلى قومه جميعا، وقاتل المهاجرون أقرباءهم في بدر، واتصلت الوشيجة بينهم وبين الأنصار.

واعلم أن التأسِّي بهؤلاء الخُلَّص ليس سهلاً على كل أحد، وإنما على من يسَّر الله له، على من ﴿ **كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ** ﴾ سورة الممتحنة: ٦؛ على من يوقن بأن هؤلاء لن يضروا الله شيئًا وإن بلغوا ما بلغوا، ولا يضرون إلا أنفسهم؛ ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ** ﴾ّ عن جميع الوجود، ﴿ **ٱلۡحَمِيدُ** ﴾ ذاتًا وصفة وفعلاً، المحمود على كل ذلك.

المطلب الخامس: البراءة لا تنفي البر:

إن البراءة الحاسمة من كل ما يخالف هويتنا الإسلامية لا يعني أن نعامل هؤلاء المخالفين معاملة سيئة، فإن الله تعالى لا ينهانا عن البر والمعروف والإحسان الذي ليس بولاية لهم.

والأيام دُوَلٌ، والأحوال متغيرة، والضرورة تُقدَّر بقدرها، فقد تضطرنا أحوال الحياة إلى مخالطة هؤلاء الذين يخالفوننا في الأفكار، فلنستفد من خبراتهم، والحال أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها، على أن يكون ذلك مقصورًا على البر لا الحب، فمن زعم أنه يؤمن بالله وهو مع ذلك محبٌّ لمن نبذ الإيمان وراء ظهره؛ فإن إيمانه هو مجرد كلام لا حقيقة له؛ إذ لكل أمر برهان يصدقه، ومجرد الدعوى لا يفيد شيئا.

فإن أمسك المخالفون لنا شرهم عنّا، فلهم أفكارهم ولنا أفكارنا، لهم دينهم ولنا ديننا، وندعوهم بالحسنى، ونقول لهم التي هي أحسن، ونبرهم، ونقسط معهم، قال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ سورة الممتحنة:٨.

ويدخل في البر بهم أن نعود مريضهم، وأن نقبل هداياهم ونهدي لهم، وأن نهنئتهم في أفراحهم، وأن نعزيهم في أحزانهم، وأن نساعد فقيرهم والمحتاج منهم، وأن نزورهم في منازلهم، وأن نقبل دعوتهم، وأن ندعو لهم بالهداية.

ففي الدعاء لهم بالهداية ما صح من أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا لطوائف كثيرة من الكفار، كما صحَّ أنه قال: "اللهم اهد أمَّ أبي هريرة"(١)، وذلك عندما طلب أبو هريرة ت٥٩ه رضي الله عنه من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله لأمه الكافرة كي تسلم، بل دعا للقبيلة كلها فقال صلى الله عليه وسلم: "اللهم اهد دَوْسًا وائت بهم"(٢).

---

(١) رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي هريرة، رقم ٢٤٩١، واسمها ميمونة بنت صبيح، يراجع: تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي١/٢٤٨، ط: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت.

(٢) رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، رقم ٢٩٣٧.

وفي قبول هداياهم ما صحَّ من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبِل الشاة من اليهودية(١).

وفي عيادة مرضاهم: قد ثبت أن غلامًا يهوديًّا كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم، فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم –صلى الله عليه وسلم– فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمد الله الذي أنقذه من النار(٢).

ومن البر بهم: دعوتهم إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وعدم اليأس من إصلاحهم ورجوعهم إلى الإيمان، فـــ ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ ﴾ سورة الممتحنة: ٧، فتنقلب هذه العداوة إلى محبة؛ فإن الحكم يدور مع علته، فإذا انتقلوا إلى الإيمان، فإن مودتهم تعود، ﴿ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ ﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية قلوبهم، ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ يغفر ذنوبهم ويستر عيوبهم، فله الحمد الحسن والثناء الجميل.

---

(١) رواه الإمام البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه، كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين، رقم ٢٤٧٤.

(٢) رواه الإمام البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يُصلَّى عليه؟ وهل يُعرَض على الطفل الصبي الإسلام، رقم ١٢٩٠.

الفصل الخامس

ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بالإيمان وعَمَلِ الصالحات والخشية منه جل شأنه

المبحث الأول

مسائل الآية الكريمة

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ سورة البينة:٧-٨.

(المسألة الأولى): "أخبر الله تعالى عن مَآلِ الْفُجَّارِ من كَفَرَةِ أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله الْمُنَزَّلَةِ وأنبياء الله تعالى الْمُرْسَلَةِ، وأنهم يوم القيامة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ ﴾ أَيْ: ماكثين لا يُحَوَّلُونَ عنها ولا يَزُولُونَ، و ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ أَيْ: شَرُّ الخليقة التي بَرَأَهَا الله تعالى وَذَرَأَهَا.

ثم أخبرنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم، وأنهم خير البرية"(١).

(المسألة الثانية): "لمَّا خصَّصهم الله تعالى بالخيرية، ذكر ثوابهم عند ربهم يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ ، يعني: بساتين إقامَة لا ظعن فيها، يقال: عدن بالمكان: أقام، وقيل: عدن: من المعدن، أي هي معدن النعيم والأمن والسلامة.

وهذه الجنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، والنهار والأنهار: من السعة والضياء، فلا تسمى الساقية نهرًا، بل العظيم هو الذي يسمى نهرًا؛ بدليل

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٥٧.

قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾ سورة إبراهيم:٣٢، فعطف ذلك على البحر.

والنظر إلى الماء الجاري يزيد البصر نورًا، فكأنه تعالى قال: طاعتك أيها المؤمن كانت جارية ما دمت حيًّا، فوجب أن تكون أنهار إكرامي جارية إلى الأبد.

وقوله تعالى: ﴿ مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ إشارة إلى عدم التنغيص، وذلك لأن التنغيص يحصل في البستان بسبب عدم الماء الجاري، فذكر الجري الدائم، أو بسبب الغرق والكثرة، فذكر ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾

ثم الألف واللام في ﴿ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ للتعريف، فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة في القرآن، وهي نهر الماء واللبن والعسل والخمر"⁽١⁾.

(المسألة الثالثة): لمَّا كانت اللذة لا تكمل إلا بالدوام قال تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾، أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يخرجون عنها، ولا يموتون فيها؛ فلمَّا وصف اللهُ تعالى الجنةَ، أتبعه بما هو أفضل من الجنة، وهو الخلود أولًا والرضا ثانيًا، والأول للأبدان، والثاني للأرواح، وذلك أن العبد مخلوق من جسد وروح، فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة، وجنة الروح هي رضا الرب، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد، ومنتهى أمره من عالم الروح، فلا جرم ابتدأ بالجنة، وجعل المنتهى هو رضا الله⁽٢⁾.

(المسألة الرابعة): لمَّا كان جميع ما سبق هو ثمرة الرضا، وكان التصريح بذلك أقر للعين؛ لأنه جنة الروح، قال مستأنفًا أو معللاً: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

---

(١) يراجع: مفاتيح الغيب ٥٢/٣٢.

(٢) يراجع: مفاتيح الغيب ٥٢/٣٢، ونظم الدرر ٥٠١/٨.

﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ ، والرضا إذا كان من الجانبين كان أتم وأعلى، ثم إنه قدم ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ **على قوله:** ﴿وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾؛ لأن الأزلي هو المؤثر في المُحدَث، والمُحدَث لا يؤثر في الأزلي.

ورضا الله تعالى عنهم يكون بما كان سبق لهم من العناية والتوفيق، ويكون برضاه عن أعمالهم، فيمدحهم ويثيبهم، ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم، وإنما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، ولم يقل: رضي الرَّبُ عنهم، ولا سائر الأسماء؛ لأن أشد الأسماء هيبة وجلالة لفظ الله؛ لأنه هو الاسم الدال على الذات والصفات بأسرها، أي صفات الجلال وصفات الإكرام، فلو قال: رضي الرب عنهم، لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد؛ لأن المربي قد يكتفي بالقليل، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة، وفي مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة.

ورضاهم عن الله تعالى؛ لأنهم لم يبق لهم أمنية إلا أُعْطَوها، مع علمهم أنه متفضل في جميع ذلك، لا يجب عليه لأحد شيء، فلو أخذ الخلق بما يستحقونه أهلكهم، وأعظم نعمه عليهم ما منّ عليهم به من متابعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن ذلك كان سببًا لكل خير.

وقيل: إن ذلك الرضا المتبادل يكون في الدنيا أيضًا كما يكون في الآخرة، فرضاه عنهم: هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار.

قال بعض الصالحين: رضا الله تعالى عن عباده: أن يوفقهم للرضى عنه، ورضى العباد عن الله تعالى: رضاهم بما يرد من أحكامه، وخروج الكراهية من القلب، حتى لا يكون إلا فرح وسرور(١).

---

(١) يراجع: المحرر الوجيز ٥/٥٠٩، ومفاتيح الغيب ٣٢/٥٢، وتفسير القرآن العظيم ٨/٤٥٨، ونظم الدرر ٨/٥٠١.

(المسألة الخامسة): خص الله تعالى بالذكر أهلَ الخشية؛ لأنها رأس كل بركة، فهي الناهية عن المعاصي الآمرة بالمعروف، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، أي هذا الخير الذي وصفته لمن خاف الله في الدنيا في سرّه وعلانيته، فاتقاه حَقَّ تَقْوَاهُ، وعبده كأنه يراه، وقد عَلِمَ أنه إنْ لم يَرَهُ فإنه يراه، فلم يركن إلى التسويف والتكاسل، ولم يطبع نفسه بالشر بالجري مع الهوى في التطعم بالمحرمات، بل كان ممن يطلب معالي الأخلاق، فيستفتي قلبه فيما يرضي ربه؛ فإن الخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير، وهي للعارفين، فالإنسان إذا استشعر عقابًا يأتيه أو خسرًا، لحقته حالة يقال لها الخوف، وهي انخلاع القلب عن طمأنينة الأمن، وقلقه واضطرابه لتوقع مكروه؛ فإن اشتد سمي وجلاً؛ لجولانه في نفسه، فإذا اشتد سمي رهبًا؛ لأدائه إلى الهرب، وهي حالة المؤمنين الفارِّين إلى الله، ومن غلب عليه الحب لاستغراقه في شهود الجماليات، لحقته حالة تسمى مهابة؛ ومن غلب عليه التعظيم لاستغراقه في شهود الجلاليات صار في الإجلال، ووراء هذا الخشية، فمن خاف ربه هذا الخوف انفك من جميع ما عنده مما لا يليق بجنابه سبحانه، ولم يقدح في البينة ولا توقف فيها، والكلام في الخوف والخشية وهذه المقامات مشهور، وسوف يأتي شيء من تفصيل ذلك في المبحث التالي بإذن الله.

وفيه إشارة إلى أن مجرد الإيمان والعمل الصالح ليس موصِّلاً إلى أقصى المراتب، ورضوان من الله أكبر، بل الموصِّل له خشية الله تعالى، فالرضا على قدر قوة العلم والرسوخ في المعرفة.

والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية؛ للإشعار بعلة الخشية، والتحذير من الاغترار بالتربية، والتعريض بأن الكفار لم يرعوا حق الربوبية إذا لم يخشوا ربهم، فهم عبيد سوء(١).

---

(١) يراجع: جامع البيان ٥٤٣/٢٤، والمحرر الوجيز ٥٠٩/٥، ومفاتيح الغيب ٥٢/٣٢، ونظم الدرر ٥٠١/٨، وروح المعاني ٢٠٦/٣٠، والتحرير والتنوير ٤٨٧/٣٠.

المبحث الثاني

الإيمان وعمل الصالحات وخشية الله تعالى

المطلب الأول: الإيمان:

"الإيمان في اللغة: التصديق؛ مصدر آمن يؤمن إيمانًا، وقد اتفق على ذلك أهل العلم باللغة؛ قال تعالى عن إخوة يوسف: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ سورة يوسف:١٧، أي بمصدق"(١).

وأما الإيمان في عرف الشرع؛ فإن أهل الحديث يرون أن المرء حين يتحقق توحيده يكون قد أتى بأصل الإيمان، ثم كلما فعل الطاعات ازداد إيمانه، وكلما ارتكب المعاصي نقص إيمانه، وقد رُوي عن الإمام البخاري رضي الله عنه أنه قال: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص(٢).

فالأعمال شرط كمال في تحقُّق الإيمان عندهم، لا شرط صحة، كما عند الخوارج والمعتزلة.

وأما جمهور الأشاعرة فالإيمان عندهم عبارة عن التصديق بالقلب فقط؛ هذا هو مسماه اللغوي، فينبغي ألا يُنقل من معناه؛ لأن الأصل عدم النقل؛ إلا أنه أُطلق على تصديقٍ خاصٍ بأشياء بيّنها الدين(٣).

ويجب ألا يذهب إلى تصورنا أن عدم اشتراط مشايخ الأشاعرة لأعمال الجوارح في حقيقة الإيمان يعني أنهم لا يهتمون بها؛ كل ما في الأمر أنهم

---

(١) يراجع: لسان العرب مادة أمن ٢١/١٣، وتاج العروس مادة أمن ١٨٤/٣٤ وما بعدها

(٢) صحيح الإمام البخاري كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، ويراجع: فتح الباري ٤٧/١

(٣) يراجع: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ٣٨٩/١، ومفاتيح الغيب ٢٤/٢، والمواقف ٥٢٧/٣ وما بعدها، وشرح المقاصد ٢٤٧/٢

يميزون بين الإيمان والإسلام؛ ويجعلون عمل الأعضاء من الإسلام لا من الإيمان؛ ودليل التفرقة بينهما اللغة، وقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ سورة الحجرات:١٤.

ومما استدل به جمهور الأشاعرة على أن الإيمان هو التصديق: قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ سورة النحل:١٠٦، فقد دلّ ذلك على أن الإيمان فعل القلب؛ وليس ذلك إلا التصديق، ولأن الله تعالى أينما ذكر الإيمان قرن العمل الصالح به، ولو كان العمل الصالح داخلاً في الإيمان لكان ذلك تكرارًا، وأيضًا فقد جاء إثبات الإيمان لمن ترك بعض الأعمال؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ سورة الحجرات:٩؛ مع أنه لا يتحقق الشيء بدون ركنه.

فإن قيل: كيف يزيد الإيمان وينقص في مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ سورة الأحزاب: ٢٠، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ سورة الفتح:٤، على أن المراد به التصديق؟!

يجيب أئمة الأشاعرة قائلين: التصديق يزيد وينقص أيضًا بكثرة النظر ووضوح الأدلة؛ وكل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل؛ حتى يكون في بعض الأحيان أعظم يقينًا وإخلاصًا منه في بعضها؛ ومراتب اليقين متفاوتة إلى علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين؛ ولذا كان إيمان الصِّدِّيق رضي الله عنه أقوى من إيمان غيره من الصحابة؛ لأنه كان بحيث لا يعتريه الشبهة.

وبناء على هذا التصور السابق للإيمان عند الأشاعرة ذهبوا إلى أن الفاسق من أهل القبلة لا يزايله وصف الإيمان؛ فسمي مؤمنًا فاسقًا؛ مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته؛ هذا فيما يتعلق بالتسمية.

وأما فيما يتعلق بالحكم: فإن الأشاعرة قرروا أن حمل آيات الوعيد على عمومها ليس أولى من حمل آيات الوعد على ذلك؛ وقرروا أن حكم صاحب الكبيرة موكول إلى الله تعالى، وأنه داخل في دائرة المشيئة؛ إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه على قدر ذنبه(١).

وبهذا يتبين فساد قول الخوارج الذين جمدوا أمام ظواهر النصوص، وكان موقفهم من صاحب الكبيرة وتسميتهم له كافرًا موقفًا في نهاية الغلظة.

والتشدُّد في إطلاق المسميات أمر له خطورته؛ خاصة في تلك الأيام الصعبة التي نعيشها، والناظر يجد من يتنطع؛ فينفِّر الناس من شريعة الإسلام، ويجد آخرين يريدون أن يأمنوا عقاب الله مع ترك العمل والسير وراء أي عارضٍ تدعوهم إليه نفوسهم التي تؤثر الراحة!!

المطلب الثاني: عمل الصالحات:

قرن الله تعالى الرضا في هذه الآية الكريمة بالإيمان، وبعمل الصالحات أيضًا، لأن تخلُّف العمل دليل على ضعف الإيمان –كما بينت آنفًا– فمدار استحقاقِ البشارةِ بالرضا مجموعُ الأمرين؛ فإن الإيمان أساسٌ، والعملُ الصالح كالبناء عليه، ولا غَناءَ بأساس لا بناءَ به.

وهذا شيء يجب أن يعيه مَن يَدَّعي الإيمان، ثم يسعى في الأرض فسادًا، ويهلك الحرث والنسل، ويحارب أهل الصلاح، فما إيمان هؤلاء إلا أماني وإن هم إلا يظنون!!!

وعمل الصالحات قد تنوعت عبارات المفسرين فيه، فمن قائل: إن معناه أنهم أدّوا ما أمرهم الله به من فرائضه، واجتنبوا ما حرّم الله عليهم من معاصيه(٢).

---

(١) يراجع: مفاتيح الغيب ٩٦/١٥ – ٩٧، والمواقف ٥٢٨/٣ وما بعدها، وفتح الباري ٤٦/١، وروح المعاني ١١١/١ – ١١٢، والتحرير والتنوير ٢٦٦/١ – ٢٦٧.

(٢) جامع البيان ٤٨٨/٨.

ومن المفسرين من قال: عمل الصالحات: هو أداؤها بإخلاص، خالية من الرياء[١].

وقال البعض: العمل الصالح: الذي فيه أربعة أشياء. العلم، والنية، والصبر، والإخلاص[٢].

ويرى الإمام الزمخشري رحمه الله أن الصالحات: كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة[٣].

والصالحات: جَمْعُ صَالِحَةٍ، وهي الْفِعْلَةُ الحسنة، فَأَصْلُهَا صفةٌ جَرَتْ مَجْرَى الأسماء؛ لأنهم يقولون: صالحة وحسنة، ولا يُقَدِّرُونَ موصوفًا محذوفًا، وكأن ذلك هو وجه تأنيثها للنقل من الوصفية للاسمية[٤].

والسرّ في الجمع في لفظة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إفادة أن المرادَ بها جملةٌ من الأعمال الصالحة، وهي متفاوتةٌ حسبَ تفاوتِ حال المكلفين في مواجب التكليف؛ لئلا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الحديث عن عمل معين، بل يشمل العمل الصالح: الصلوات، والزكوات، والصيام، والحج، وكل خير يُقدَّم للمجتمع.

المطلب الثالث: الخشية:

الخشية: هي أشد الخوف، أو: خوف يشوبه التعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه[٥].

---

[١] معالم التنزيل ١/٧٣.

[٢] معالم التنزيل ١/٧٣.

[٣] الكشاف ١/١٠٥.

[٤] التحرير والتنوير ١/٣٥٢.

[٥] المفردات في غريب القرآن ١/٣٠٠.

وبعض العلماء يجعل الخشية والخوف مترادفين(١)، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ سورة آل عمران:١٧٥، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ سورة البقرة:١٥٠ .

والأقرب عند كثير من أهل العلم أن بينهما فرقًا، وأن الخشية هي الخوف في محل الأمل، وأن ذلك حاصل للعلماء بالله تعالى، فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف، مِنْ خَشَتِ النَّخْلَةُ تَخْشُو: إذا جاء تَمْرُهَا رَدِيئًا، وهي مما يُرْجَى منها الْجَيِّدُ(٢)؛ لأن الخوف أعم من أن يكون من مرهوب مُعَظَّم محبوب، أو مرهوب مُبغَض ذميم، بل هو هرب القلب من حلول المكروه عامَّة عند استشعاره، وقد مثّلوا لهما بمن يرى العدو والسيل ونحو ذلك؛ فإن له حالتين، إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف، والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه، وهي الخشية.

ومما يدل على وجود فرق بينهما قول الله تعالى:﴿ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ سورة فاطر:٢٨، فالقصر المستفاد من ﴿ إِنَّمَا ﴾ يعني أنه لا يخشاه الجهال، وهم أهل الشرك؛ " ثم إن العلماء في مراتب الخشية متفاوتون في الدرجات تفاوتًا كثيرًا؛ فعلى قدر العلم تقوى الخشية، فالعالم بالله لا تلتبس عليه الحقائق، بل يفهم مواقعها حق الفهم، ويرعاها في مواقعها، ويعلم عواقبها من خير أو شر، فيأتي من الأعمال ما فيه مراد الله ومقصد شرعه، فإن هو خالف ما دعت إليه الشريعة في بعض الأحوال، أو في بعض الأوقات؛ لداعي شهوة أو هوى أو تعجل نفع دنيوي، كان في حال المخالفة موقنًا أنه مُورِّط فيما لا تُحمَد

---

(١) البحر المحيط ٦١٦/١.

(٢) يراجع: تهذيب اللغة ١٩٦/٧، والقاموس المحيط فصل الخاء ١٢٩٧/١، وتاج العروس مادة خشو ٥٤٧/٣٧.

عقباه، فذلك الإيقان لا يلبث أن ينصرف به عن الاسترسال في المخالفة بالإقلاع أو الإقلال.

وأما غير العالم إن اهتدى بالعلماء، فسعيه مثل سعي العلماء، وخشيته متولدة عن خشية العلماء؛ إذ العلم دليل على الخيرات وقائد إليها(١).

فالخشية إذن مبنية على العلم الذي يحمل صاحبه على اتقاء كل ما يكون سببًا لعقاب الله تعالى، ويدفعه للتحقق بكل ما يكون سببًا لمرضاته، وليست مجرد مشاعر طارئة، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأتقاكم لله وأخشاكم له"(٢).

---

(١) يراجع: تفسير المنار ٣٢٢/٤، والتحرير والتنوير ٣٠٤/٢٢-٣٠٥.

(٢) رواه الإمام مسلم بسنده عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه، كتاب الصيام، باب بيان أن القُبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته، رقم ١١٠٨.

الخاتمـــة

اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

وختامًا، فإن هذا هو غاية الوسع ومنتهى الطوق – ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها – وقد توصلت بفضل الله تعالى من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

١- الرضا حال من أحوال الذات العلية لَا نعرف كنهها، ولا ندرك حقيقتها، وهي تليق بذاته الكريمة، وكما أن للخالق جل شأنه إرادة وسمعًا وبصرًا تليق بجلاله؛ فإن له محبة ورضا وغضب تليق بجلاله، وهذا ما يطمئن له العبد في باب الإيمان، وأما إذا قلنا بالتأويل فالإرادة لَا تستلزم الرضا، إنما الأمر هو الذي يستلزم الرضا، والنهي يستلزم الغضب، والرضا أكثر من الإرادة؛ لأن الإرادة تتعلق بالخلق والتكوين، فما أراده الله تعالى يقع، وما لا يريده لَا يمكن أن يقع، وأما الرضا ففيه ما فيه من الاستحسان، ويترتب عليه نفاسة المَرضي عند الراضي، ومعناه بالنسبة للذات العلية أن يكون العمل أو القول محل قبوله سبحانه وتعالى ومحل كرامته وعنايته.

٢- رضا العبد عن الله تعالى: هو سكون قلبه إلى قديم اختيار الله له، فيرضى به، وهناك فرق بين من هو راض بمحبوبه وبين من هو راض بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه.

٤- الرضا كسبي باعتبار سببه، وهبي باعتبار حقيقته، فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه، فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته اجتنى منها ثمرة الرضا.

٥- يرضى الله تعالى عن الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه من العمل بطاعته واجتناب معاصيه، ورضوا هم عن الله تعالى ذكره في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه من جزيل ثوابه، وحقيقة الصدق أوسع من كونها الصدق في الحديث فقط، وإنما حقيقة الصدق شاملة لصدق النية والعزيمة، وصدق اللسان، وصدق الأعمال.

٦- السبق إلى الهجرة طاعة عظيمة؛ لأن الهجرة فعلٌ شاقٌّ على النفس، ومخالف للطبع، فمن أَقْدم عليه فاز بمنصب عظيم، وهو منصب الرضا الموصول بينه وبين الله تعالى، والهجرة باطنة والظاهرة، فالباطنة: ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء وما يزيّنه الشيطان، والظاهرة هي الفرار بالدين من الفتن، والأولى أصلٌ للثانية.

٧- جرت سنة الله تعالى في خلقه أن يميل كلُّ شبيه إلى شبيهه ومَنْ على شاكلته، والمؤمنُ الذي يفوز بالرضا الموصول بينه وبين الله هو الذي لا يحابي حزب الشيطان، وعدم المحاباة لا تعني المعاملة السيئة، بل إن أمسكوا شرهم عنّا، فلهم أفكارهم ولنا أفكارنا، وندعوهم بالحسنى، ونقول لهم التي هي أحسن.

٨- الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بأبدانهم، واستغرقوا في خشية ربهم، هم خير البرية الذين يفوزون بالخلود في النعيم أولًا، وبالرضا ثانيًا، فالأول للأبدان، والثاني للأرواح، وذلك أن العبد مخلوق من جسد وروح، فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة، وجنة الروح هي رضا الرب.

توصيات الدراسة:

١- تعزيز خُلُق الرضا في المناهج الدعوية والتربوية.

٢- الاهتمام بالجانب العملي لتطبيق الرضا، وذلك بتشجيع الناس على تفعيله في حياتهم اليومية في مواجهة الابتلاءات والضغوط المعيشية.

٣- ينبغي الربط بين الرضا والصحة النفسية من خلال إجراء مزيد من الدراسات التي تهتم بإظهار العلاقة بين الرضا كمفهوم إسلامي وبين التوازن النفسي.

والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الإبهاج في شرح المنهاج للإمام تقي الدين السبكي، ط: دار الكتب العلمية-١٤٠٤هـ.

٣- أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت-١٤٠٥هـ، ت: محمد الصادق قمحاوي.

٤- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ط: دار المعرفة.

٥- الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح المقدسي، ط: مؤسسة الرسالة-بيروت-١٤١٧هـ، ت: شعيب الأرنؤوط.

٦- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود، ط: دار إحياء التراث العربي.

٧- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للإمام الشوكاني، ط: دار الكتاب العربي، ط١: ١٤١٩هـ.

٨- أسباب نزول القرآن للإمام الواحدي، ط: مؤسسة الحلبي.

٩- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ط: دار الجيل- بيروت- ١٤١٢هـ.

١٠- إشارات الإعجاز في مظانِّ الإيجاز لبديع الزمان النورسي، ط: شركة سوزلر للنشر- القاهرة، ط٣: ٢٠٠٢م.

١١- الأعلام لخير الدين الزركلي، ط: دار العلم للملايين.

١٢-أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي، ط: دار الفكر- بيروت.

١٣- البحر المحيط في أصول الفقه للإمام الزركشي، ط: دار الكتب العلمية- ١٤٢١هـ.

١٤- البحر المحيط لأبي حيان، ط: دار الفكر-بيروت-١٤٢٠هـ، ت: صدقي محمد جميل.

١٥- البحر المحيط لأبي حيان، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٢هـ، ت: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض.

١٦- تاج العروس من جواهر القاموس لأبي الفيض مرتضى الزَّبيدي محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ت ١٢٠٥هـ، ط: دار الهداية.

١٧- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للإمام الذهبي، ط: دار الكتاب العربي- بيروت.

١٨- تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب البغدادي، ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت، ت: د/ بشار عواد معروف.

١٩- تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد للطاهر بن عاشور، ط: الدار التونسية للنشر-١٩٨٤م.

٢٠- تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي، ط: دار الكتب العلمية.

٢١- تفسير ابن أبي حاتم الرازي، ط: المكتبة العصرية – صيدا، ت: أسعد محمد الطيب.

٢٢- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢: ١٤٢٠هـ، ت: سامي بن محمد سلامة.

٢٣- التفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب، ط: دار الفكر العربي- القاهرة.

٢٤- تفسير المنار للشيخ رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٠م.

٢٥- تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي، ط: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت.

٢٦- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للقاضي أبي بكر الباقلاني، ط: مؤسسة الكتب الثقافية-لبنان، ط١: ١٤٠٧هـ، ت: عماد الدين حيدر.

٢٧- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي، ط: دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط١:٢٠٠١م، ت: محمد عوض.

٢٨- التوحيد لأبي منصور الماتريدي، ط: دار الجامعات المصرية- الإسكندرية، ت: د/ فتح الله خليف.

٢٩- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، ط: المطبعة المنيرية- القاهرة.

٣٠- جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري، ط: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٠هـ، ت: الشيخ أحمد شاكر.

٣١- الجامع الصحيح لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ط: دار الجيل- بيروت.

٣٢- الجامع الصحيح لأبي عيسى الترمذي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ت: الشيخ أحمد شاكر.

٣٣- الجامع الصحيح المختصر من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري، ط: دار ابن كثير- اليمامة، ط٣: ١٤٠٧هـ، ت: د/ مصطفى ديب البغا.

٣٤- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، ط: دار الكتب المصرية، ط٢: ١٣٨٤هـ، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.

٣٥- حجة القراءات لأبي زرعة، ط: دار الرسالة، ت: سعيد الأفغاني.

٣٦- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي، ط: دار الكتب العلمية.

٣٧- دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه لابن الجوزي، ط: دار الإمام النووي- الأردن، ت: حسن السقاف.

٣٨- الذريعة إلى محاسن الشريعة للراغب الأصفهاني، ط: دار السلام- القاهرة-١٤٢٨هـ، ت: أبو اليزيد العجمي.

٣٩- الرسالة القشيرية للإمام القشيري، ط: دار المعارف- القاهرة، ت: الإمام عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف.

٤٠- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للإمام الألوسي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٤١- زهرة التفاسير لأبي زهرة، ط: دار الفكر.

٤٢- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني، ط: مطبعة بولاق الأميرية- القاهرة.

٤٣- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، ط: دار الحديث- القاهرة.

٤٤- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، ط: مؤسسة الرسالة.

٤٥- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ت: د/ عبد الكريم عثمان.

٤٦- شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني، ط: دار المعارف النعمانية- باكستان- ١٤٠١هـ.

٤٧- شفاء العليل لابن القيم، ط: دار المعرفة- لبنان.

٤٨- صيد الخاطر لابن الجوزي، ط: دار القلم- دمشق، ط١: ١٤٢٥ه، ت: حسن المساحي.

٤٩- طبقات الحفاظ للإمام السيوطي، ط: دار الكتب العلمية.

٥٠- طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي، ط: دار هجر للطباعة.

٥١- طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي، ط: دار الكتب العلمية- ١٤١٩هـ، ت: محمد عبد القادر عطا.

٥٢- طبقات القراء السبعة وذكر مناقبهم وقراءاتهم لابن السَّلّار الشافعي، ط: المكتبة العصرية- صيدا.

٥٣- الطبقات الكبرى لابن سعد، ط: دار الكتب العلمية، ت: محمد عبد القادر عطا.

٥٤- العين للخليل بن أحمد، ط: دار ومكتبة الهلال، ت: د/مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي.

٥٥- غاية المرام في علم الكلام لسيف الدين الآمدي، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- مصر، ت: محمود عبد اللطيف.

٥٦- غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، ط: مكتبة ابن تيمية.

٥٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط: دار المعرفة - بيروت - ١٣٧٩هـ.

٥٨- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، ط: مكتبة الخانجي.

٥٩- القاموس المحيط للفيروزآبادي، ط: مؤسسة الرسالة- بيروت، ت: محمد العرقسوسي.

٦٠- قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لأبي طالب المكي، ط: دار الكتب العلمية- ١٤٢٦هـ، ت: إبراهيم الكيالي.

٦١- الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله الزمخشري، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ت: عبدالرزاق المهدي.

٦٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ط: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٣هـ، ت: عبد السلام عبد الشافي.

٦٣- معالم التنزيل للإمام محيي السنة البغوي، ط: دار طيبة للنشر، ط٤: ١٤١٧هـ، ت: عثمان جمعة- سليمان مسلم الحرش- محمد عبد الله النمر.

٦٤- مفاتيح الغيب للإمام العالم العلامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، ط١: ١٤٢١هـ.

٦٥- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط: دار القلم- دمشق.

٦٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٥هـ، ت: عبد الرزاق غالب المهدي.

References

- *Al-Ibhaj fi Sharh Al-Minhaj*, Imam Taqi Ad-Din As-Subki, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah-1404AH.

- *Ahkam Al-Quran*, Abu Bakr Ar-Razi, Dar Ihyaa At-Turath Al-Arabi, Beirut-1405 AH.

- *Ihyaa Uloum Ad-Deen*, Abu Hamid Al-Ghazali, Dar Al-Maarifa.

- *Aadab Ash-Sharia wa Al-Minha Al-Maraia*, Ibn Mufleh Al-Maqdisi, Ar-Risala Foundation -Beirut-1417AH.

- *Irshad Al-Akl As-Salim li Mazaya Al-Kitab Al-Karim*, Dar Ihyaa At-Turath Al-Arabi.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
١	**المقدمة**
٢	**تمهيد في التعريف بالرضا في اللغة والاصطلاح**
٣	**الفصل الأول: الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد**
٤	**المبحث الأول: رضا الله تعالى عن العباد**
٥	**المبحث الثاني: رضا العباد عن الله تعالى**
٦	**الفصل الثاني: ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بخُلُق الصدق**
٧	**المبحث الأول: (مسائل الآية الكريمة)**
٨	**المبحث الثاني: (أثر الصدق في نيل الرضا)**
٩	المطلب الأول: في التعريف بالصدق وأنواعه
١٠	المطلب الثاني: في بواعث الصدق وعلاماته
١١	المطلب الثالث: ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب
١٢	المطلب الرابع: المراد بالصادقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه
١٣	المطلب الخامس: نَفْع الصدق
١٤	**الفصل الثالث: ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بالهجرة في سبيله ونصرة دينه**
١٥	**المبحث الأول: مسائل الآية الكريمة**
١٦	**المبحث الثاني: فضل الهجرة وأحكامها**
١٧	المطلب الأول: تعريف الهجرة
١٨	المطلب الثاني: فضل الهجرة
١٩	المطلب الثالث: أحكام الهجرة

م	الموضوع
٢٠	**الفصل الرابع: ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بالحب في الله تعالى والبغض من أجله**
٢١	**المبحث الأول: في مسائل الآية الكريمة**
٢٢	**المبحث الثاني: الحب في الله تعالى والبغض له**
٢٣	المطلب الأول: في الحب في الله
٢٤	المطلب الثاني: البراءة من علامات الإيمان
٢٥	المطلب الثالث: ما به تظهر البراءة
٢٦	المطلب الرابع: براءة الصالحين من المفسدين
٢٧	المطلب الخامس: البراءة لا تنفي البر
٢٨	**الفصل الخامس: ارتباط الرضا الموصول بين الله تعالى والعباد بالإيمان وعَمَلِ الصالحات والخشية منه جل شأنه**
٢٩	**المبحث الأول: مسائل الآية الكريمة**
٣٠	**المبحث الثاني: الإيمان وعمل الصالحات وخشية الله تعالى**
٣١	المطلب الأول: الإيمان
٣٢	المطلب الثاني: عمل الصالحات
٣٣	المطلب الثالث: الخشية
٣٤	**الخاتمة**
٣٥	**فهرس المصادر والمراجع**
٣٦	**فهرس الموضوعات**